قِصَّةُ
آدمَ عَلِيهِ السَّلام

لأبى الفضل الحافظ

عبد الله بن محمد بن الصديق الغمارى الحسنى

غفر الله له

الطبعة الثانية

الناشـــر

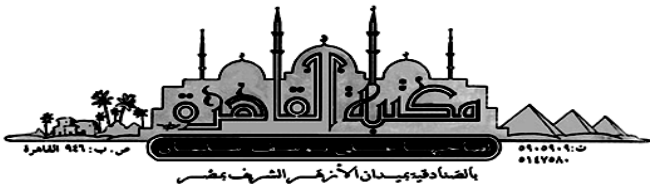

تأسست : ١٩٣٥

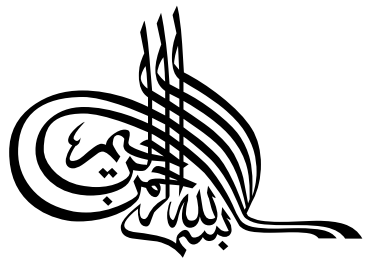

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٩٧/١٧٥٩
الترقيم الدولى I.S.B.N
978-977-401-12-١١٤-٢٠

جميع حقوق الطبع والتحقيق والشرح والتعليق والنشر والتوزيع والنقل والترجمة والاقتباس حسب قوانين النشر

خاصة بمكتبة القاهرة

لصاحبها: على يوسف سليمان وأولاده

١٢ شارع الصنادقية بالأزهر ت : ٢٥٩٠٥٩٠٩

١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت : ٢٥١٤٧٥٨٠

جوال : ٠١٢٢٧٥٠٩٤٢ / ٠١٠٠١٢٢٠١١٢

رمز بريدى ١١٥١١ الأزهر ـ القاهرة

tarekali5992@yahoo.com

جمهورية مصر العربية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: ١ - ٧].

«اللهمَّ صَلِّ وسَلِّم على نبيِّك المُصْطَفى، ورَسُولِكَ المُرتضى، سيِّدنا محمَّدٍ سيِّد وَلَدِ آدمَ، ورَحْمَتِكَ المُهْدَاةِ إلى جميع العَالَمِ، وارضَ اللهمَّ عن آلِهِ وعِتْرَتِهِ وصَحَابَتِهِ، وعن كلِّ مَن اتَّبَع هَدْيَهُ وسَلَكَ نَهْجَ شَريعَتِهِ».

[1]

[1]

مقدمة

عُنِيَ القرآنُ الكَريمُ بقَصَصِ الأنبياء عِنايةً بالغةً، يدل عليها ذِكْرُه للقِصَّة ثُمَّ إعادتها مرَّتين أو أكثر بأساليب وإن اختلفت بالإجمال والتفصيل تتشابه في إشراق الدِّيباجة، ونُصوع اللفظ، وسُمُوِّ المعنىٰ وجلال العِبْرة، وهذا من الأدلة علىٰ أنه كلام الله جلَّ عُلاه؛ لأنه لا يتيسَّر لشخصٍ -كيفما كانت فصاحته- أن يكتب قصَّةً واحدةً مرَّتين تتساوىٰ أجزاؤهما في قوَّة الأسلوب، وبلاغة التعبير.

ومن الحِكْمة في تكرير القِصَّة في الكتاب الكريم -إلىٰ جانب الإعجاز الذي تتضمَّنه- تثبيت القلب، وتقوية الإيمان فيه، وتمكين العِظَة منه، والثِّقة بنصر الله لعباده المُخلِصين المُصلِحين والتأسِّي بالصَّفْوة المُختارة من المُقرَّبين، هذا إلىٰ ما تفيده من أحكام شرعيَّة، ومسائل عِلْميَّة، وأخلاق كريمة، وآداب قويمة، ومعرفة بسير الماضين، تُمكِّن من دَرْسِ أحوالهم وعاداتهم، وما اعتراهم من تقلُّبات الكون، وحوادث الزمان.

تلك مقاصد في الذِّكْر الحكيم قلَّما يعرض لغيرها ممَّا يعتبر من المُتمِّمات، ولا يدخل في الصميم. لكن إذا ورد بيانه علىٰ لسان النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في حديثٍ صحيحٍ أو حسنٍ -كتسمية صاحب موسىٰ بالخَضِر، وفَتاهُ بيُوشَع، عليهم السَّلام- لم يكن بد من قبوله والتصديق به، وليس من الجائز رَدُّه بعُذْرٍ من الأَعْذار- كما فعل بعض[1] المعاصرين- لأنه ابتداعٌ وفُسُوقٌ،

---

(١) فمنهم مَن رَدَّ الحديث الوارد في "الصحيحين" وغيرهما من طُرُقٍ: عن ابن عبَّاسٍ، عن أُبيٍّ بن كعبٍ، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا

مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥] قال: «هو الخَضِر». وذكر قصته مع موسىٰ عليهما السَّلام.

وهذا الحديث بَلَغَ حَدَّ الشُّهرة والاستِفاضَة، ومع ذلك رَدَّه بعض الجهلة الأزهريين؛ بدعوىٰ أنَّ القرآن لم يُعيِّن الخَضِر ولا يُوشَع فتىٰ موسىٰ!!

وهو جهلٌ بالقواعد الأصوليَّة، وانحرافٌ عن السُّنَّة النبويَّة.

ومثله في ذلك ردُّ الشيخ عبدالوهاب النجَّار بعض الأحاديث في "الصحيحين" بدَعْوَىٰ أنها آحادٌ لا تفيد اطمئنان القلب، وسنعرض لدحض دعواه بالتفصيل في مواضعها من هذه القصص إن شاء الله.

بل ذكر في القواعد التي سار علي ضوئها في "قصص الأنبياء" قاعدتين هما:

(رقم ٤) ونصُّها: «الخبر إذا كان روايته آحادٌ فلا يصلح أن يكون دليلًا علي ثبوت الأمور الاعتقاديَّة؛ لأن الأمور الاعتقاديَّة الغَرَضُ منها القَطْعُ، والخبر الظنِّيُّ الثُّبوت أو الدلالة لا يُفيد القَطْعَ».

(ورقم ٧) ونصُّها: «المعجزات لا تثبت بخبر الآحاد؛ لأن المطلوب فيها اليقين، وخبر الآحاد لا يقين فيه».

وعلىٰ أساس هاتين القاعدتين استباح لنفسه أن يردَّ الأحاديث الصحيحة الثابتة في الكتب الستة وغيرهما، وقد يكون ردُّه في بعض الأحيان مصحوبًا بسخرية من الحديث المردود في نظره، وتلك وقاحةٌ قبيحةٌ.

أَضِفْ إلىٰ ذلك أن تينك القاعدتين بالإطلاق الذي أراده يُخالف إجماع العلماء، ولا يسندهما شيءٌ من القواعد.

ذلك لأنَّ الاعتقادات علىٰ ثلاثة أقسام:

إلهيَّات: وهي ما تتعلَّق بالإله سبحانه وتعالىٰ وجوبًا واستحالة وجوازًا.

ونبويَّات: وهي ما تتعلَّق بالأنبياء والملائكة كذلك.

وسَمْعيَّات: وهي ما تتعلَّق بما بعد الموت من حَشْرٍ وحسابٍ وعذابٍ ونعيمٍ وما إلى ذلك.

فالإلهيَّات يعتمِدُ قسم الواجب منها على الدليل القطعيِّ، وأمَّا القسم الجائز فيكتفى فيه بالخبر الصحيح، لأنه فرعٌ عن ثبوت القُدْرة لله تعالى، وشمولها لكلِّ مَقْدُورٍ، وقد أثبتهما الدليل القطعيُّ في قسم الواجب.

والنبويَّات يعتمِد منها علي الدليل القطعيِّ شيئان:

١- إثبات النبوَّة وحاجة الناس إليها.

٢- إثبات نبوة شخصٍ مُعيَّنٍ، أو تعين مَلَكٍ بالذات، فلا تجزم بأنَّ شخصًا نبيٌّ أو من الملائكة إلَّا إذا ثبت بالخبر الذي يفيد اليقين.

وأمَّا المعجزات وسائر السمعيَّات فيكتفى فيها بالحديث الصحيح بلا نزاعٍ بين أهل السُّنَّة، لأنهم أجمعوا على أنَّ ما جاز في العقل وورد بوقوعه السمع وجب وقوعه وحمله علي ظاهره، وممَّن صرَّح بهذا: القاضي أبو بكر ابن العربي في "الأحكام"، والقاضي عياض في "الشفا" و"شرح مسلم"، والإمام النووي في "شرح مسلم"، والإمام ابن المنير في"حاشية الكشاف"، والحافظ ابن حجرٍ في "شرح البخاري"، والعلَّامة السنوسيُّ في "شرح الكبرى"، وغيرهم .

وصرَّح الحافظ ابن كثيرٍ في مقدِّمة "تاريخه" أنَّ الاعتماد والاستناد فيما يذكر من مبدأ الخَلْقِ، وأخبار الأنبياء، وأشراط الساعة، وأحوال القيامة، وصِفَة الجنَّة والنَّار على كتاب الله وسُنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ما صحَّ نقله أو حَسُن.

وسبقه إلى هذا المعنى أيضًا الحافظ البيهقيُّ في كتاب "الاعتقاد"، و"دلائل النبوة"، و"الأسماء والصفات" بل هو إجماعٌ كما أسلفنا.

وهو بالتالي ردٌّ لكلام الله تعالى حيث وكَلَ لنبيِّه عليه السلام بيان ما نزل في الذِّكر الحكيم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. ومن المُسلَّم به أنَّ أخبار المعصوم لا يمكن احتمال تطرُّق الخطأ إلى شيءٍ منها، كما قيل باحتمال ذلك في اجتهاده عليه السَّلام، على رأي[1] شاذٍّ

وممَّا لا شك فيه أنَّ القرآن الكريم أثبت نبوة نبيِّنا عليه السلام ونبوَّة غيره من الأنبياء، وسَجَّل معجزاتهم التي تحدّوا بها قومهم، فكلُّ معجزةٍ بعد ذلك رَوَتْها كتب السُّنَّة صادرةٌ عن أحد الأنبياء، ومنهم نبينا -عليهم السلام- لا يشترط فيها اليقين؛ لأنها لم يقع بها تحدٍّ، ولا توقَّف عليها إثبات النبوة.

فلهذا أجمع أهل السُّنَّة على الاكتفاء فيها بخبر الآحاد إجماعًا عمليًّا مُستمِرًّا، تلقَّاه الخَلَفُ عن السَّلَفِ، وحَذَا فيه الآخِر حَذْوَ الأوَّل.

على أنَّ خبر الآحاد المحتفَّ بالقرائن -ومنه خبر "الصحيحين"- يفيد اليقين عند جمهور المحقِّقين، ولم يأتِ مَن خالفهم بحُجَّةٍ ناهِضَةٍ، وانظر كتابنا "عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام".

(تنبيه): الأمر الخارق للعادة إذا وَقَعَ به التحدِّي كناقة صالحٍ، وعصا موسى، وإحياء الموتى، والقرآن الكريم؛ سُمِّي معجزةً، وإذا لم يقع به التحدِّي كالخوارق المرويَّة في كتب السُّنَّة عن كثيرٍ من الأنبياء؛ سُمِّي آيةً.

ففرَّق الله ما بين الآية والمعجزة فرق ما بين الأعمِّ والأخصِّ، فكلُّ معجزةٍ آيةٌ دون عكسٍ؛ قال العلَّامة الأُبِّي في "شرح مسلم" في الكلام على حديث رَدِّ الشمس ليوشع: «وقد علمتَ ممَّا قدَّمنا أنَّ الذي يطلب فيه اليقين هو المعجزة لا الآية»، والله تعالى أعلم.

(١) وأشار التاج السبكيُّ في "جمع الجوامع" إلى خطأ هذا الرأي الشاذِّ، بقوله: «والصواب أنَّ اجتهاده عليه السلام لا يخطئ».

لبعض العلماء، لأن دخول الخطأ في الخبر لا يكون إلَّا عن غفلةٍ أو قلَّة ضبطٍ، والعقل يقضي بنفيهما عنه عليه السَّلام نفيًا جازمًا.

أمَّا ما جاء في الإسرائيليَّات فمن المحتَّم ردُّه إذا خالف ظاهر القرآن أو ما ثبت في السُّنَّة، وإن وافقهما فالاعتماد عليهما دونه.

وقد يُستأنس بما ينفرد به دونهما إذا كان يدخل في باب الوعظ وترقيق القلوب، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: خوِّفنا يا كعب.

وقد انتُقد كثيرٌ من كتب التفسير -كـ"تفسير الخازن"- لحشوها كثيرًا من الإسرائيليَّات وإقحامها في تفسير جملٍ من الآيات، وهو صادف محلَّه، لا سيما إذا لاحظنا أن فيها مخالفةً للمعقول ومَساسًا بمقام الأنبياء عليهم السلام.

مثل ما جاء فيها من مرض أيوب، وفتنة داود، وخاتم سليمان، وغير ذلك ممَّا رسخ في أذهان قرَّاء تلك التفاسير، حتىٰ ارتقىٰ إلىٰ درجة اليقينيَّات أو المُسلَّمات بحيث لا يجري علي لسانهم ذكر نبيٍّ في محاضرةٍ أو محاورةٍ حتىٰ ترتسم في مُخيِّلتهم صورته ملفوفةٌ في إطارٍ مِن تلك الخُرافات، مع أنهم لو تأمَّلُوا سِياق القرآن لوجدوه ينفي أغلب ما نقلوه، أو لا يفيده علىٰ أقلِّ تقدير.

وممَّا لا جِدال فيه أن مقام الأنبياء لا يجوز أن يوصَم بما يَخْدِشُ العِصْمة، ولا ينبغي أن تؤوَّل أعمالهم بما يُنزِلها عن درجة القُدْوة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

ومن الإجرام القبيح ما هَذَىٰ به بعض مُبتدِعة الأزهر في كُتيِّب آثمٍ سمَّاه "اجتهاد الرسول"، ولو أراد مُستشرِقٌ أن يطعن في الرسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما استطاع أن يطعن بأكثر ممَّا فعل ذلك المبتدِع الجاهل، وقد شرعت في دحض مفترياته وكشف سوآته.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فعلى الباحث أن يراعي ذلك كل المراعاة، مضافًا إلى وجوب التقيد بظاهر القرآن الكريم وصحيح الأحاديث.

وهذه سلسلةٌ من قَصَصِ الأنبياء وافيةٌ بالشروط السابقة، خاليةٌ ممَّا انتُقد على غيرها من كتب القَصَص والتفسير، حاليةٌ بتحقيقاتٍ رائِقةٍ، ونِكاتٍ شَائِقَةٍ استنبطتها بفَضْل الله من مكنون الآيات القرآنيَّة، ومَضْمُون الأخبار النبويَّة.

وتناولنا بعض ظواهر النُّصوص بما يزيل عنها الغُموض ويُجلي الإشكال، وكشفنا ما انحدر فيه بعض المعاصرين من انحرافٍ عن الجادَّة، وميلٍ عن الصواب، عامدين إلى تحقيق البحث العلميِّ مُجَرَّدًا عن الانحياز لرأيٍ مُعيَّنٍ ما لم يسنده دليل، مُستمدِّين من الله التوفيق فيما نقصد إليه.

ونبتدئ الكلام بقصة آدم عليه السلام، بما يجد القارئ تفصيله في الفصول التالية.

قبل خلق العالم

كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، فلم يكن زمانٌ ولا مكانٌ، ولا قطرٌ ولا أوانٌ، ولا عَرْشٌ ولا مَلَكٌ، ولا كوكبٌ ولا فَلَكٌ. ثُمَّ أَوْجَدَ العالَمَ مِن غير احتياجٍ إليه، ولو شاء ما أوجده.

فهذا العالَمَ كلُّه بما فيه من جواهر وأعراضٍ حادثٌ عن عدمٍ، ليس فيه شائبةٌ مِن قِدَمٍ حسبما اقتضته قضايا العقول وأيَّدته دلائل النُّقول وأجمع عليه الملِّيون قاطبة إلا شذَّاذًا من الفلاسفة قالوا بقِدَم العالَم، وهم كُفَّارٌ بلا نزاعٍ.

قال ابن حزمٍ في "مراتب الإجماع": «بابٌ: من الإجماع في الاعتقادات بما يكفر مَن خالفه بإجماعٍ: اتفقوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ وحده لا شريك له، خالق كلِّ شيءٍ غيره، وأنه تعالى لم يزل وحده ولا شيء غيره معه، ثُمَّ خَلَقَ الأشياء كلَّها كما شاء، وأنَّ النَّفْس مخلوقةٌ، والعرش مخلوقٌ والعالَمَ كلَّه مخلوقٌ». اهـ

ونازعه بعض العلماء في هذا الإجماع القطعيِّ لزعمه الفاسد وجود حوادث لا أول لها، يعني بذلك قِدَم العالَم بالنوع، وهذا من مستشنع المسائل المنسوبة له، كما قال الحافظ ابن حجرٍ في "فتح الباري".

أول المخلوقات

في "صحيح البخاري": عن عمران بن حصينٍ، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**كان اللهُ ولم يكن شيءٌ غَيْرُهُ، وكان عَرْشُهُ على الماءِ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كلَّ شيءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ**».

قال العلماء: المراد بـ«كان» في الجملة الأولى: الأزليَّة، وفي الثانية: الحدوث بعد العَدَم.

وفي "صحيح مسلم": عن عبدالله بن عمرٍو، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**إنَّ اللهَ كَتَبَ مَقاديرَ الخلائق قبل أن يَخلُقَ السمواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنةٍ وكان عَرْشُهُ على الماءِ**».

وفي "مسند الإمام أحمد": عن أبي رزين العقيليِّ مرفوعًا: «**إنَّ الماءَ خُلِقَ قبل العَرْشِ**». صحَّحه الترمذيُّ.

يؤخذ من هذه الأحاديث أنَّ أوَّل المخلوقات: الماء، ثُمَّ العَرْش، ثُمَّ القَلَم.

لأن الكتابة حصلت بعد كون العرش على الماء، بل جاء ذلك صريحًا فيما رواه ابن شاهين في "الصحابة": عن نافع بن يزيد الحميريِّ أنه أتىٰ مع وفدٍ من اليمن -غير الأشعريين- إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فسألوه عن أول هذا الأمر، فقال: «**كان اللهُ لا شيء غيره، وكان عَرْشُهُ على الماء، ثُمَّ خَلَقَ القَلَمَ، فقال: اكتب ما هو كائنٌ، ثُمَّ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما فيهنَّ**». فهذا صريحٌ في ترتيب المخلوقات.

ولا يُعارضه ما رواه أحمد، وصحَّحه الترمذيُّ: عن عبادة بن الصامت مرفوعًا: «**أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، ثُمَّ قال: اكتب، فجرى بما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ**».

لأنَّ أوَّلية القَلَم إضافيَّةٌ بالنسبة لما عَدَا الماء والعرش، أو المراد: أوَّل ما خَلَقَ اللهُ من نوع ما يكتب به، فهي أوليَّة نوعيَّة.

ولم يصح غير هذا في ترتيب المخلوقات عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فلا نجزم فيه بشيءٍ ،ونَكِلُ علمه إلى الله تعالىٰ.

وروىٰ البيهقيُّ وغيره بإسنادٍ ضعيفٍ عن ابن عبَّاسٍ: أنه سئل عن قوله

تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]. علىٰ أي شيءٍ كان الماء؟ قال: «علىٰ متن الرِّيح».

وروىٰ البيهقيُّ أيضًا عن مجاهدٍ قال: «بدء الخَلْق: العرش والماء والهواء».

أمَّا حديث: «**أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ العَقْلَ**»، فهو حديثٌ واهٍ بجميع طُرُقه، لا يصح اعتماده، وعلىٰ فرض ثبوته فهو مؤوَّلٌ بنحو ما أولت به أوَّلية القلم.

وكذلك لم يصح أنَّ أوَّل المخلوقات اللوح المحفوظ أو الروح.

وحديث: «**أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ نورُ نبيِّك يا جابر**» ذكره غير واحدٍ من أصحاب السِّير والمولد النبويِّ، وعزوه إلىٰ عبدالرزَّاق والبيهقيِّ في "الدلائل"، وهو عزوٌ غلطٌ فلا وجود له فيهما، ونصَّ السيوطيُّ في "الحاوي" علىٰ أنه ليس له إسنادٌ يُعتمَد عليه.

وأزيد علىٰ ذلك أنه حديثٌ موضوعٌ، وقفت عليه في كتاب "تلقيح الأذهان ومفتاح معرفة الإنسان" لمحيي الدين ابن العربي[1] فإذا هو حديثٌ طويلٌ ركيكٌ، يجزم من قرأه ببطلانه.

وكذلك حديث: «**كنتُ نورًا بين يدي ربِّي قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عامٍ**». هو موضوعٌ، وإن رُوي من طريق زين العابدين عن أبيه عن جدِّه

---

(١) بـ(ال) كما هو مكتوب بخطه علىٰ أجزاء من "الفتوحات المكية" بدار الكتب المصرية، وكما قرأته بخطه علىٰ أجزاء حديثية، ولأن أهل الأندلس يسمون «العربي» كما لا يزال المغاربة يسمون بذلك إلىٰ الآن، أمَّا الذين يقولون: ابن عربي، فهم واهمون ويزعم بعضهم أنَّ هذا للفرق بينه وبين ابن العربي المعافري المالكيِّ، وهو وهمٌ علىٰ وهمٍ، وقد وقع في هذا الوهم كثيرون منهم صاحب "القاموس".

عليهم السَّلام، فإنَّ الآفة فيه ممن قبل زين العابدين، وهو مكذوبٌ عليه.

نعم صحَّ في الحديث من طرق أنه عليه السَّلام كان نبيًّا وآدم بين الرُّوح والجسد، وهو يفيد تقدُّم خلق روحة الشريفة وإفاضة وصف النبوَّة عليها قبل نفخ الرُّوح في آدم.

ومن حمل ذلك على ثبوت العلم بنبوته فهو مخطئ من عِدَّة وجوهٍ بينتها في "الأحاديث المنتقاة في فضائل رسول الله"، أوضحها: أنَّ المخلوقات كلها ثابتةٌ في عِلْم الله أزلًا، فلا معنى لتخصيص النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بذلك.

ومن اللطائف قول الحافظ ابن رجب في "لطائف المعارف": «وسمَّاه الله مُبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فقيل سراجًا للمؤمنين في الدنيا، ومُنيرًا للمذنبين يوم القيامة بالشفاعة، وسُمِّي سراجًا لأن السراج الواحد يوقد منه ألف سراجٍ ولا ينقص من نوره شيءٌ، كذلك خَلَقَ الله الأنبياء من نور محمدٍ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ولم ينقص من نوره شيءٌ». اهـ

عناصر خلق المخلوقات

في "صحيح مسلم": عن عائشة رضي الله عنها، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**خُلِقت الملائكة من نورٍ، وخلق الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخُلق آدم ممَّا وُصِفَ لكم**».

وأخرج عبدالرزَّاق وإسحاق بن راهويه والحاكم والبيهقيُّ: عن طاووس قال: جاء رجلٌ إلى عبدالله بن عمرٍو فسأله: ممَّ خُلِقَ الخَلْق؟ قال: «من الماء والنور والظُّلْمة والرِّيح والتراب». قال الرجل: فممَّ خُلق هؤلاء؟ قال: «لا

أدري».

ثُمَّ أتىٰ الرجل عبدالله بن الزبير فسأله، فقال له مثل قول عبدالله بن عمرٍو.

قال: فأتىٰ الرجل عبدالله بن عبَّاسٍ فسأله: مِمَّ خُلِقَ الخَلْقُ؟ قال: «من الماء والنور والظلمة والرِّيح والتراب». قال الرجل: فممَّ خُلق هؤلاء؟

فتلا عبدالله بن عبَّاسٍ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلَّا رجلٌ من بيت النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

قال البيهقيُّ: «أراد أنَّ مصدر الجميع منه، أي من خلقه وإبداعه واختراعه، خَلَقَ الماءَ أوَّلًا، أو الماء وما شاء من خَلْقه لا عن أصلٍ، ولا علىٰ مثالٍ سَبَقَ ثُمَّ جعله أصلًا لِما خَلَقَ بعده». اهـ

والخلاصة: أن الله أوجد هذه العناصر مِن عدمٍ ثُمَّ جعلها مادَّةً لسواها من المخلوقات.

الملائكة

مخلوقون مِن نورٍ كما سبق، وهم أجسامٌ لطيفةٌ أُعطيت قُدْرة علىٰ التشكُّل بأشكالٍ مختلفةٍ غير زريةٍ[1]، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون ولا ينامون، يسبِّحون الليل والنهار لا يَفْترون، عباد الله المُكْرَمون لا

---

(١) فلا يظهر الملك في صورة كلبٍ أو ثعبانٍ مثلًا، بخلاف الجنِّ فإنَّ أغلب تشكُّلهم في صور زرية.

يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، رسلٌ معصومون[1] لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] وهم كثيرٌ لا يحصيهم العد ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] مسكنهم السموات وما فوقها إلى سدرة المنتهى، وينزلون إلى الأرض لتنفيذ ما أمروا به من أعمال، لا يضعفون ولا يهرمون ولا تعتريهم آفةٌ من الآفات، ولا يموتون إلَّا عند النفخة الأولى نفخة الموت لجميع الأحياء في هذا الوقت، وهم أفضل من جميع البشر خواصِّهم وعوامِّهم إلَّا الأنبياء، ومن زعم أنَّ بعض البشر -غير الأنبياء- أفضل منهم أو بعضهم فقد أخطأ خطأ كبيرًا وحاد عن الصواب. ومن زعم أن لا عقل لهم أو نفى عنهم الاختيار فقد دخل في الضلال من أوسع باب.

ومن الخرافات: ما يُحكى في بعض الكرامات أنَّ وليَّ الله سيِّدي عبدالرحيم الغُماريَّ الشهير بالقنائي رضي الله عنه شفع إلى الله في مَلَكٍ استشفع به، فقبل الله شفاعته!!.

---

(١) وكثير من الأشاعرة يزعم عدم عصمتهم، وهو خطأ كبير، وإذا تتبَّعت آيات القرآن وجدته يشفع ذكر الملائكة بالثناء عليهم، ومدحهم بالطاعة لله والانقياد لأوامره، ولم ينسب إلى واحدٍ منهم تقصيرًا أو عصيانًا، والسُّنَّة على منوال القرآن في ذلك، فلم يذكر مَلَكٌ في حديثٍ صحيحٍ إلَّا مَقرونًا بالتعظيم والتبجيل، إلَّا هاروت وماروت ففي كونهما من الملائكة خلافٌ، وعلى القول بكونهما مَلَكين فما ذكر في قصتهما مع الزهرة من نسج الإسرائيليات، وإن رفعت أحاديث بذلك إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فرفعها خطأ من بعض الرواة، وسنبيِّن ذلك في محله من هذه القصص بحول الله.

ومقام سيِّدي عبدالرحيم في غير حاجةٍ إلى هذه الترَّهات، ولكن قاتل الله الغُلُوَّ والجهل، وليس لأحدٍ أن يحتجَّ في نفي العصمة عنهم بقصة هاروت وماروت فإنها من نسج خيال الإسرائيليَّات، وسيأتي بيان ذلك في موضعه بحول الله تعالى.

الجـن

مخلوقون مِن مارِجٍ مِن نارٍ، أُعطوا قدرة التشكُّل على أشكالٍ مختلفةٍ يتناكحون ويتناسلون، وإبليس أبوالجن ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُۢۚ﴾ [الكهف: ٥٠] فيهم المسلم والكافر والطائع والعاصي، طائعهم يُثاب بالجنَّة[1]، وعاصيهم يعاقب بالنَّار.

وقد ذُكر شيءٌ من أحوالهم في سورتَي (الرحمن) و(الجن)، واختلف في جواز التزاوج بينهم وبين الإنس عقلًا والراجح إمكانه، وقال الثعالبيُّ: «زعموا أنَّ التناكح والتلاقح قد يقعان بين الإنس والجنِّ وقال الله تعالى ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**إذا جامَعَ الرَّجُلُ امرأتَهُ ولم يُسَمِّ؛ انطوى**

---

(١) وبعض العلماء زعم أنَّ الجنَّ لا يدخلون الجنَّة، وثواب مطيعهم أن يجار من النَّار، وهذا القول لا دليل عليه، بل القرآن يردُّه فإنَّ سورة (الرحمن) كلها خطابٌ للإنس والجنِّ، وفيها قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٤٧] إلى أخر السورة، وذلك صريحٌ في دخول الجنِّ للجنَّة، كما يدخلها الإنس.

الشيطانُ على إحْلِيلِه فجامَعَ مَعَهُ».

وقال ابن عبَّاسٍ: «إذا أتىٰ الرجل امرأته وهي حائضٌ سَبَقَهُ الشيطانُ إليها فحملت فجاءت بالمُخنَّث، فالمخنَّثون أولاد الجنِّ».اهـ رواه ابن جريرٍ

قلت: والحديث المذكور هو من كلام مجاهدٍ وليس من كلام النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

وأمَّا الزواج الشرعيُّ؛ فقد كَرِه الحسن البصريُّ وقتادة والحكم بن عتيبة وإسحاق بن راهويه نكاح الجنِّ، وفي "الفتاوىٰ السراجية" من كتب الحنفية: «لا تجوز المناكحة بين الإنس والجنِّ وإنسان الماء لاختلاف الجنس».

وكذا أفتىٰ قاضي القضاة شرف الدين ابن البارزيِّ الشافعيُّ بعدم زواج الإنس من الجنِّ مُستدلًّا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النحل: ٧٢] وهو يؤول إلىٰ التعليل باختلاف الجنس كما سبق عن "الفتاوىٰ السراجية".

وروىٰ حرب الكرمانيُّ في "مسائله" عن أحمد وإسحاق من طريق ابن لَهيعة، عن يونس بن يزيد، عن الزهريِّ قال: «نهىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن نكاح الجنِّ». وهذا مرسلٌ، وابن لَهيعة فيه كلامٌ.

وروىٰ حربٌ أيضًا عن زيد العمِّي قاضي هراة، أنه قال: اللهمَّ ارزقني جنيَّةً أتزوَّجها، قيل له يا أبا الحواري وما تصنع بها؟ قال: تصحبني في أسفاري، حيث كنت كانت معي.

وروىٰ أبو عثمان سعيد بن العباس الرازيُّ في كتاب "الإلهام والوسوسة" في باب نكاح الجن منه، قال: «حدَّثنا مقاتل: حدَّثني سعد بن داود الزبيديُّ،

قال: كتب قومٌ من اليمن إلى مالك بن أنسٍ رضي الله عنه يسألونه عن نكاح الجنِّ، وقالوا: إنَّ هنا رجلًا من الجنِّ يخطب إلينا جاريةً، يزعم أنه يريد الحلال، فقال: ما أرى بذلك بأسًا في الدِّين، ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل، قيل لها: من زوجك؟ قالت: من الجنِّ! فيكثر الفساد في الإسلام بذلك».اهـ

وهذا قولٌ يدل على الحِكْمة وبُعْد النظر، وهو يتفق مع الأخذ بسَدِّ الذَّريعة الذي اعتبره الإمام مالكٌ في كثير من المسائل.

خلق السموات والأرض

بعد كتابة مقادير الأشياء بخمسين ألف سنةٍ خلق الله السموات والأرض، وكان خلق الأرض قبل خلق السموات، لكن دَحْوها كان بعد خلق السموات ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣] والأرضون سبع مثل السموات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وهي متراكبةٌ بعضها تحت بعضٍ، كما يفيد ظاهر لفظ «مثل» في الآية السابقة.

وجاء صريحًا في بعض الأحاديث والآثار، ومَن حَمَلها على القارَّات أبعد وقال ما لا دليل عليه.

خلق آدم عليه السلام

لَمَّا أراد الله أن يخلق آدم أمر مَلَك الموت فقبض قبضةً مِن الأرض من ترابٍ، فجعله طينًا أي مخلوطًا بماءٍ ثُمَّ تركه حتى إذا كان حمأً مَسْنونًا، أي مُتغيِّرًا خَلَقَه وصوَّره جسمًا كاملًا بلا روحٍ، ثُمَّ تركه حتى صار صَلْصَالًا كالفخَّار -

أي يصل ويصوت إذا ضرب- وكان يمر به إبليس فيفزع منه ويقول: «لقد خلقت لأمرٍ عظيمٍ»، فلمَّا رآه مُجوَّفًا عَلِم أنه خَلْقٌ لا يتمالك.

ثُمَّ نفخ الله فيه من روحه وكان أول ما جرىٰ فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس، فألهم أن يقول: «الحمد لله». فقال الله: «يرحمك ربُّك».

فسمِّي آدم لأنه خُلِق من أديم الأرض، وكانت القبضة التي خلق منها مأخوذةٌ من سلالة الأرض المشتملة علىٰ خلاصة ما فيها، فجاء أولاده علىٰ قدر الأرض، منهم الأبيض والأحمر والأسمر والأسود، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيِّب وبين ذلك[1].

سجود الملائكة لآدم عليهم السلام

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨

---

(١) روىٰ الديلميُّ بسندٍ ضعيفٍ عن أبي هريرة مرفوعًا: «الهَوَىٰ والبَلاءُ والشَّهْوةُ مَعْجُونةٌ بطينة آدمَ». وفي "مسند أحمد" عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَها مِن جميع الأرضِ فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ، منهم الأبيض والأحمر والأسمر والأسود وبين ذلك، والسَّهْلُ والحَزَنُ وبين ذلك، والخبيث والطيِّب وبين ذلك».

ورواه أبو داود، والترمذيُّ، وابن حِبَّان في "صحيحه"، وقال الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ».

- ٣١] الآيات.

وكان هذا سجود التكريم والتحية في جميع الشرائع، حتىٰ حرمته شريعة الإسلام، فلا يجوز الآن سجود أحدٍ لأحدٍ لا علىٰ وجه التكريم ولا علىٰ وجه التحية، كما قال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لمعاذٍ حين أراد أن يسجد له: «**لا يسجد أحدٌ لأحدٍ ولو كنت آمِرًا أحدًا أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأة أن تسجدَ لزوجِها مِن عِظَمِ حَقِّهِ عليها**».

نكتة علميَّة في سجود الملائكة

نقل المقري في "نفح الطيب" عن القاضي أبي البركات محمد بن الحاج السلميِّ، وهو من شيوخ ابن خلدون، أنه استدل لتفضيل الملائكة علىٰ البشر بأن الله أسجدهم لآدم، فنظر بعض الحاضرين إلىٰ بعض وقال جُنَّ القاضي. قال: أتقولون إنَّ أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاءٍ واختبارٍ؟ قالوا: نعم، قال: أفيُختبَر تواضع العبد بالخضوع لسيِّده؟ أم الأمر بالعكس؟ قالوا: إنما يختبر تواضع السيِّد بالخضوع لعبده. قال: فكذا الملائكة وآدم لو لم يكونوا أفضل منه ما اختبر حالهم بالأمر بالسجود له. فأذعنوا بذلك». اهـ

ونظر فيه ابن الحاج في "حاشية المرشد المعين" «بأن الظاهر أنَّ السجود إكرام لا اختبار». اهـ

ولا مانع أن يكون اختبارًا أيضًا للملائكة، لأن أوامر الله لا تخلو أن تكون اختبارات للمكلَّفين بالإضافة إلىٰ ما فيها من المصالح والحِكَم لهم.

وإذا لوحظ أنَّ عنصر الملائكة وهو النور، أفضل من الطين كان في سجودهم لآدم امتحانٌ أيُّ امتحان، ولولا أنهم معصومون لتمسَّكوا بأفضليَّة

عنصرهم كما تمسَّك إبليس لعنه الله بكونه خُلِق من نارٍ.

ومن الأدلة في هذا الموضوع قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] ولا شك أنَّ بني آدم أفضل من الجنِّ والحيوان بلا نزاع، ولو كانوا أفضل من الملائكة لعبرت الآية بـ«جميع» ولكن التعبير بـ«كثير» للتنصيص علىٰ إخراج الملائكة، وأنهم أعلىٰ من أن يدخلوا في هذه المفاضلة.

خلافة آدم في الأرض

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

تخبر هذه الآية الكريمة أنَّ الله قضىٰ باستخلاف آدم في الأرض لعمارتها، والانتفاع بما أودعه فيها من نباتٍ وحيوانٍ ومعادن وغير ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ولإقامة الحقِّ، والحكم بالعدل بين أهلها إذا اختلفوا، والاختلاف ضرورة من ضروريات الحياة في هذه الدنيا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

كيف عرف الملائكة أن بني آدم يفسدون

لَمَّا أخبر الله الملائكة بأنه جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فمن أين علموا ذلك؟

للعلماء في الجواب عن هذا السؤال وجوه:

منها: أنهم ألهموا ذلك إلهامًا؛. قاله الحسن البصريُّ.

ومنها: أنهم اطَّلعوا عليه في اللوح المحفوظ. قاله أبو جعفرٍ الباقر عليه السَّلام.

ومنها: أنهم علموا أنَّ الأرض لا يخلق منها إلَا من يكون بهذه المثابة غالبًا. نقله الحافظ ابن كثيرٍ.

ومنها: أنهم قالوا ذلك بالقياس على الجنِّ الذين سكنوا الأرض قبل آدم فأفسدوا فيها وسفكوا الدِّماء فبعث الله عليهم جندًا من الملائكة فأجلوهم إلى جزائر البحور وشعف الجبال وبطون الأودية.

قاله ابن عبَّاسٍ وابن عمر.

ومنها: أنهم استنبطوه من لفظ: ﴿خَلِيفَةً﴾ لأن الخليفة من يكون نائبًا في الحكم، وذلك يكون عند التظالم.

ومنها: أنَّ الله أخبرهم بذلك، وإن لم يُشر إليه القرآن على طريقته في الإيجاز وحذف ما يعلم بالقرائن؛ لأن الملائكة لا يعلمون الغيب ولا يسبقون الله بالقول، فلم يعلموا إلَّا بإخباره سبحانه وتعالى[1].

---

(١) أخرج ابن جريرٍ عن ابن زيدٍ قال: لَمَّا خلق اللهُ النَّار ذعرت منها الملائكة ذعرًا شديدًا وقالوا: ربَّنا لم خلقت هذه؟ قال: لمن عصاني مِن خَلْقي. ولم يكن لله خَلَقَ يومئذٍ إلَّا الملائكة، قالوا: يا ربِّ ويأتي علينا دهرٌ نعصيك فيه؟! قال: لا إني أريد أن أخلق في الأرض خَلْقًا، وأجعل فيها خليفةً، يسفكون الدِّماء ويفسدون في الأرض، قالوا:

كيف ساغ للملائكة أن يراجعوا الله وهم معصومون؟

قال أبو حَيَّان في تفسيره "البحر المحيط": «لَمَّا كان ظاهر قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] الآية ، ممَّا لا يناسب أن يُجاوبوا به الله، وكان من القواعد الشرعيَّة والعقائد الإسلاميَّة عصمة الملائكة من المعاصي والاعتراض -لم يخالف في ذلك إلَّا طائفة من الحشوية- احتاج أهل العلم إلى إخراج الآية عن ظاهرها ، وحملها كلُّ قائلٍ على ما سنح له وقوي عنده من التأويل الذي هو سائغٌ في عِلْم اللسان».اهـ

ولهم في تخريج الآية أوجه:

أحدها: أنهم سألوا استفهامًا عن الحكمة في جعل خليفةٍ في الأرض يُفسد فيها ويسفك الدماء ، مع علمهم بأنَّ الله يبغض الفساد وسفك الدماء، وقالوا: إن كانت الحِكْمة في خلقهم أن يعبدوك فنحن نُسَبِّح بحمدك ونُقَدِّس لك ، لا نَفْتُر عن عبادتك؟

ثانيها: أنهم سألوا تعجُّبًا واستعظامًا لحصول هذا من بني آدم، مع إكرام الله لهم بالخلافة.

ثالثها: أنَّ الملائكة لَمَّا توهَّموا أنَّ الله تعالى أقامهم في مقام المشورة ، بان لهم وجه المصلحة في بقاء الخلافة فيمن يُسبِّح ويُقدِّس، وأن لا ينقلها إلى من يُفسد

«أتجعل فيها من يفسد فيها...» الآية.

وجاء عن ابن عبَّاسٍ أيضًا أنَّ الله أخبر الملائكة بفعل البشر فلذلك قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية.

فيها ويسفك، فعرضوا ذلك على الله، وكان ذلك من جملة النصح في الاستشارة والنصح واجبٌ على المُستشار، ولله تعالى الحكم فيما يمضي من ذلك ويختار. قاله بعض أهل الإشارات من الصوفيَّة.

رابعها: قال صفي الدين أبو عبدالله الحسين ابن الوزير أبو الحسن عليُّ ابن أبي المنصور الخزرجيُّ، في كتاب "فك الأزرار": «ظاهر كلام الملائكة يشعر بنوعٍ من الاعتراض وهم منزَّهون عن ذلك، والبيان: أنَّ الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مجملين، وكان إبليس مندرجًا في جملتهم فورد منهم الجواب مجملًا فلما انفصل إبليس عن جملتهم بإبائه وظهور إبليسيته واستكباره، انفصل الجواب إلى نوعين: فنوع الاعتراض منه كان عن إبليس وأنواع الطاعة والتسبيح والتقديس كان عن الملائكة فانقسم الجواب إلى قسمين، كانقسام الجنس إلى جنسين، وناسب كلُّ جواب من ظهر عنه والله أعلم». اهـ

قال أبو حَيَّان: وهو تأويلٌ حسنٌ ، وصار شبيهًا بقوله ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] الآية، لأن الجملة كلها مقولة والقائل نوعان، فرد كل قول لمن ناسبه».اهـ

تعليم آدم الأسماء كلها

لَمَّا صدر من الملائكة ذلك السؤال، وقد قيل: إنه كان منهم على سبيل الإدلال، إذ كانوا في حضرة الجمال، أراد الله أن يظهر لهم الحكمة في إيجاد الخليفة، وما يترتب على ذلك من مقاصد سامية شريفة، مع بيان إحاطة علمه

تعالىٰ بما لم يعلموه، رغم اطلاعهم علىٰ اللوح المحفوظ الذي خط القلم فيه ما هو كائن.

فعلَّم آدم الأسماء كما قال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

وماذا علَّمه؟ قال ابن عبَّاسٍ: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسانٌ ودابَّةٌ وأرضٌ وسهلٌ وبحرٌ وجبلٌ وجملٌ وحمارٌ، وما أشبه ذلك من الأُمَمِ وغيرها. وكذا قال مجاهدٌ وقتادة وسعيد بن جُبيرٍ وغيرهم.

ثُمَّ عرض مُسمَّيات الأسماء علىٰ الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المُسمَّيات ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١] في ظنِّكم أنكم أعلم ممن أخلقه بعدكم لاطلاعكم علىٰ اللوح المحفوظ والجنَّة والسماوات وما فيهنَّ قبل خلق آدم.

فلمَّا عجزوا في هذه الناحية وهم علماء، قال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم ﴾ آدم ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ المُسمَّيات بأن قال: هذا شجرٌ وهذا جبلٌ وهذا كذا... إلخ. قال الله لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وأنتم علمتم ظواهرهما ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ من قولكم: «أتجعل فيها...» ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣] مِن ظنِّكم أني لا أخلق أعلم منكم، ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢] عِلْمًا استقلاليًّا بل هو مستمدٌّ منك، وهو معنىٰ الاستثناء الآتي ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ بالوحي أو الاطلاع علىٰ اللوح

المحفوظ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وهنا نكاتٌ علميَّةٌ نُشير إليها تتميمًا للفائدة:

إحداها: روىٰ الديلميُّ وابن عساكر عن عطية بن بُسْرٍ مرفوعًا في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] قال: «علَّمه الله في تلك الأسماء ألف حِرْفَةٍ مِن الحِرَف، وقال: قل لولدك وذريتك يا آدم: إن لم تصبروا عن الدنيا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف ولا تطلبوها بالدِّين، فإنَّ الدين لي وحدي خالصًا، ويلٌ لمن طلب الدُّنيا بالدِّين، ويلٌ له».

وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا يشتمل علىٰ تهديدٍ شديدٍ لأولئك الذين يتخذون الدِّين مَطِيَّةً لأغراضهم الدنيوية، ومطامعهم الشخصية، وقد توعَّد الله بني إسرائيل بالويل لاتخاذهم آيات الله تجارةً ومكسبًا.

ومما لا شك فيه أنَّ الله علَّم آدم كثيرًا من الحِرَف التي يحتاج إليها في حياته هو وأولاده، بل ورد ذلك في كثيرٍ من الآثار[1] وكُتُبِ التاريخ.

ثانيتها: استُنبط من الآية مَزيَّة العِلْم وفضله علىٰ العبادة، وأنه شرطٌ في الخلافة بل هو عمدتها وأساسها، والأدلة علىٰ هذا كثيرةٌ مبسوطةٌ في محلِّها، وفي القرآن الكريم آيٌ كثيرةٌ تُنوِّه بفضل العِلْم وأهله.

ثالثتها: أخذ الأشعريُّ وأتباعه وابن فورك من تعليم الله الأسماء آدم: أنَّ

---

(١) روىٰ البزار والطبراني عن أبي موسىٰ يرفعه قال: «لما أخرج الله آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة وعلمه صنعة كل شيء، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تغير وتلك لا تغير». رجال إسناده ثقات، لكن رواه عبد الرزاق فجعله موقوفًا من قول أبي موسىٰ.

اللغات توقيفيةٌ، أي بتوقيف من الله ووحي منه إلى آدم عليه السلام، وهو أحد أقوال في المسألة.

والقول الثاني: أنها اصطلاحيةٌ نشأت بين الناس بحسب احتياجهم إلى التعارف وتفهيم بعضهم مقاصد بعضٍ، فهي من وضع البشر. ودليل هذين مع بقية الأقوال مبسوطةٌ في علم أصول الفقه.

امتناع الشيطان من السجود وطرده من الجنة

امتنع الشيطان من السجود لآدم عليه السلام مُعتزًّا بعُنصره الناري، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢] وكان امتناعه مسبوقًا بإصراره على عصيان آدم حيث كان يطيف به وهو صَلْصَالٍ كالفَخَّار فيفرغ منه ويقول: لأمرٍ ما خُلِقْتَ، ولئن سُلِّطتُ عليك لأُهْلِكَنَّك، ولئن سُلِّطتَ عليَّ لأعْصِيَنَّك.

فعارض أمر الله بالسجود واستكبر وكان مِن العالِين، فأبلسه الله من رحمته ولعنه، فسأل الله أن يُنْظِره -أي يؤخِّره- فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم وهو النفخة الأولى حين تفنى جميع المخلوقات ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [ص: ٧٥ - ٨١].

ويلاحظ أنَّ الخبيث طلب الإنظار إلى يوم البعث لينجو من الموت، إذ لا موت بعد البعث ولكن الله لم يجبه إلى ذلك، بل أخَّره إلى النفخة الأولى ليذوق

الموت الذي حكم الله به على خَلْقِهِ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]

استشكال في سجود الشيطان والجواب عنه

يستشكل كثيرٌ من الناس دخول إبليس في الأمر الموجَّه للملائكة بالسجود، مع أنه كان من الجنِّ، وهو استشكالٌ وجيهٌ، وجوابه من وجوهٍ:

أحدها: أنه وإن لم يكن من عنصرهم فقد تشبَّه بهم، وتوسَّم بأفعالهم وكان مُندمجًا فيهم لعبادة الله، فشمله الخطاب معهم.

ثانيها: أنَّ الأمر للأعلى -وهم الملائكة- يشمل الأدنى -وهو الشيطان- من باب أولى، ولهذا اتفق الجمهور على أنَّ الخطاب المُوجَّه للنبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يشمل أُمَّته معه، إلَّا إذا قام الدليل على أنه خاصٌّ به.

ثالثها: أنَّ الحِكْمة في الأمر بالسجود: تحية آدم عليه السلام وتكريمه، وهو معنى يشمل الحاضرين إذ ذاك ومنهم إبليس.

رابعها: أنَّ قول الله تعالى مخاطبًا إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ صريحٌ في أنه كان مأمورًا بالسجود مع الملائكة؛ ولهذا لم يقل إبليس: لم يتوجَّه الأمر إليَّ، بل عَدَلَ إلى قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وذلك اعترافٌ منه بأنه مأمورٌ بالسجود.

(**نكتة علمية**): استنبط علماء الأصول وفقهاء الأمصار مِن ذَمِّ الله لإبليس على ترك السجود الذي أُمِر به: أنَّ الأمر يقتضي الوجوب؛ لأنه لا ذمَّ إلَّا على ترك الواجب، ولو كان الأمر للندب لما ذَمَّ الله إبليس على تركه ولكان لإبليس أن يقول: إنك لم توجبه عليَّ، لكنه عَدَلَ إلى قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ الآية. فدلَّ على

أنَّ الأمر المُطْلَق للوجوب ؛ أي يدل عليه حقيقةً، ويكون استعماله في الندب أو غيره من المعاني مجازًا يحتاج إلى قرينةٍ.

(نكتة ثانية): قال الحسن البصريُّ: أول مَن قاسَ إبليس.

وكذا قال محمد بن سيرين وزاد: وما عبدت الشمس ولا القمر إلَّا بالمقاييس.

ومعنى هذا أنَّ الشيطان نظر نفسه بالمقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أفضل لشرف عنصره في نظره، فتكبَّر وامتنع عن السجود لذلك، وهو قياسٌ في مقابلة النصِّ فيكون فاسد الاعتبار.

خلق حواء

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] هذه الآية الكريمة تخبر أنَّ الله خَلَقَ من آدم زوجه، وكان بدء ذلك أنَّ آدم عليه السلام لما عَلَّمَ الملائكةَ أسماء المسمَّيات نام فخلق الله من ضلعه الأيسر امرأةً، فلما صحا وجدها بجانبه، فقال لها مَن أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولِم خلقت؟ قالت: لتسكن إليَّ، قالت له الملائكة - ينظرون ما يبلغ علمه-: ما اسمها يا آدم؟ قال: حوَّاء، قالوا: لِم سمِّيت حوَّاء، قال: لأنها خلقت مِن حيٍّ.

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أَعْلاهُ، إن ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإن تَرَكْتَهُ لم يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خيرًا**». وفي رواية لمسلم: «**فإن ذهبتَ تُقيمَها كَسَرْتَها وكَسْرُها طَلاقُها**».

وقال ابن عبَّاسٍ: «إنما سمِّيت المرأة مرأةً لأنها خُلقت من المرء، وإنما سمِّيت حوَّاء لأنها أمُّ كلِّ حيٍّ». رواه أبو الشيخ ابن حَيَّان وابن عساكر.

(نكتة علمية): أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتمٍ والبيهقيُّ في "الشعب" عن ابن عبَّاسٍ قال: «خُلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجال، فاحبسوا نساءكم، وخُلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض». يعني الحراثة والبناء واستخراج ما في بطنها من الكنوز والمعادن.

سكنى آدم وزوجه الجنة

بعد أن طرد الله الشيطان من الجنة لكفره وتكبُّره على أمر الله أمر آدم بسُكْنَى الجنَّة: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ أي هنيًّا ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

أباح الله لهما سُكْنَى الجنة والأكل من ثمارها ومن جميع ما فيها من غير مشقَّةٍ ولا تعبٍ يلحقهما في الحصول على ما يريدان من طعامٍ وشرابٍ إلَّا شجرةً واحدةً حرَّمها عليهما واختلف في تعينها فقيل الحنطة وقيل النخلة، وقيل التين، وقيل غير ذلك. وهذا من الخلاف الذي لا طائل تحته؛ لأنه لا يتعلَّق بتعينها حكمٌ شرعيٌّ ولا فائدةٌ تاريخيةٌ، وإلَّا لعيَّنها القرآن الكريم.

وفي آيةٍ أخري: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٧ - ١١٩].

وفي المقابلة بين الجوع والعري والظمأ والضحاء مناسبةٌ لطيفةٌ، هي أنَّ

الجوع ذلُّ الباطن والعري ذلُّ الظاهر وبعبارةٍ أخرىٰ الجوع خلو الباطن من الطعام، والعري خلو الظاهر من الثياب، كما أنَّ الظمأ حرُّ الباطن والضحاء حرُّ الظاهر.

(نكتة علمية): في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ أي تتعب في الحصول علىٰ المعيشة وما يتعلَّق بها إشارةٌ واضحةٌ علىٰ اختصاص الرجل بشؤون الحياة ومتاعبها ومشاقِّها خارج المنزل، أمَّا المرأة مكانها البيت، لا شأن لها بالسياسة ولا بالعمل الذي يدعو إلىٰ اختلاطها بالرجال، ويكفيها أن تُعنَىٰ بإدارة منزلها، وتربية أطفالها والعناية بهم حتىٰ يكونوا عُدَّة المستقبل، وهذا واضحٌ في قوله: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾ حيث أسند الشقاء إلىٰ آدم دون حوَّاء، مع ملاحظة توجيه الخطاب إليها معه في سكنىٰ الجنَّة، والأكل من ثمرها، وتحريم شجرةٍ منها، والخروج من الجنة ؛ لأن هذه الأشياء يصح اشتراكهما فيها.

الجنة التي سكنها آدم عليه السلام

اختلف العلماء في الجنة التي سكنها آدم وحواء عليهما السلام، فالجمهور علىٰ أنها التي في السماء وهي جنَّة المأوىٰ التي أعدها الله دار ثواب لعباده المؤمنين.

وقيل: جنَّةٌ أخرىٰ غير جنة الخلد؛ لأنه كُلِّف فيها ونام ودخل عليه إبليس فيها، وهذا ينافي أن تكون جنَّة الخلد.

وهذا القول محكيٌّ عن أُبيِّ بن كعب وابن عبَّاسٍ ووهب بن مُنبِّه وسفيان بن عُيَيْنَة، واختاره ابن قتيبة في كتاب "المعارف"، وحكاه الرازي في "تفسيره" عن أبي القاسم البلخيِّ وأبي مسلمٍ الأصفهانيِّ، ونقله القرطبيُّ في "تفسيره" عن

المعتزلة والقَدَرية، ثُمَّ اختلف أصحاب هذا القول على رأيين:

أحدهما: أنها كانت في السماء لقوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ وهو رأي الحسن البصريِّ.

ثانيهما: أنها كانت في الأرض في جهةٍ عاليةٍ منها؛ وهو قول أكثرهم، واختاره القاضي منذر بن سعيد البلوطيُّ الأندلسيُّ في "تفسيره"، ثُمَّ أفرد له كتابًا مستقلًا أطال فيه الاستدلال، وحكاه عن أبي حنيفة وأصحابه.

قال القاضي الماورديُّ في "تفسيره": «واختلف في الجنَّة التي أُسكناها - يعني آدم وحواء- على قولين:

أحدهما: أنها جنة الخلد.

الثاني: جنَّةٌ أعدَّها الله لهما وجعلها دار ابتداء، وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء. ومن قالوا بهذا اختلفوا على قولين:

أحدهما: أنها في السماء لأنه أهبطهما منها؛ وهذا قول الحسن.

والثاني: أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار، وهذا قول ابن بحرٍ، وكان ذلك بعد أمر إبليس بالسجود لآدم، والله أعلم بالصواب من ذلك».اهـ

وممن حكى الخلاف في المسألة أيضًا أبو محمد ابن حزمٍ في "الملل والنحل" وأبو محمد ابن عطية في "تفسيره"، وأبو عيسى الرمانيُّ في "تفسيره"، والإمام الرازي في "تفسيره"، وابن القيِّم في "حادي الأرواح" وأطال في ذكر أدلة القولين ولم يصرِّح بترجيح أحد القولين، فكأنه مال إلى التوقف كما مال إليه أبو الحسن الماوردي في عبارته السابقة.

واختاره الإمام الرازي في "تفسيره"، وجعله قولًا رابعًا حيث قال: «والقول الرابع أنَّ الكل ممكنٌ، والأدلة متعارضةٌ، لأنه لم يسلم دليل لأحد الأقوال من احتمال قويٍّ، أو معارضةٍ جيدةٍ تمنع التمسُّك بظاهره».

على أنَّ هذا الخلاف لا يمس العقيدة، ولا ينبني عليه حكمٌ شرعيٌّ، وإنما الذي يجب اعتقاده: أنَّ الجنة والنار مخلوقتان الآن، للأدلة الدالة على ذلك من الكتاب والسُّنَّة المتواترة.

وسوسة الشيطان لآدم وحواء

قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

ومعنى ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: أزالهما ونحَّاهما عن الجنَّة لأنهما حين أكلا من الشجرة أهبطهما الله من الجنة. وبيان ذلك أنَّ الشيطان عرض أولًا لآدم عليه السلام يُزَيِّن له الأكل من الشجرة فلم يَنْجَع فيه، فيمَّم نحو حوَّاء عليها السلام فسمعت كلامه وأكلت من الشجرة وزيَّنتها له حتى أكل منها.

وفي "صحيح البخاري" عن أبي هريرة عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**لولا بنو إسرائيلَ لم يخنزْ اللحمُ ولولا حوَّاءُ لم تخن أنثى زوجها**».

أمَّا بنو إسرائيل فكانوا نهوا عن ادِّخار لحم السَّلْوَى فادَّخروه جَشَعًا وحِرْصًا فعوقبوا بخَنْزِه، أي نتنه.

وقيل في معناه: لولا أنهم سَنُّوا ادِّخار اللَّحْم حتى أنتن لما ادُّخر فلم ينتن. وفي "الحلية" عن وهب ابن مُنبِّهٍ قال: في بعض الكتب: لولا أني كتبتُ الفسادَ على الطَّعامِ لخَزَّنه الأغنياءُ عن الفقراء.

وأمَّا حوَّاء فكانت خيانتها أنها زيَّنت لزوجها الأكل من الشجرة حتى

أوقعته في المحذور، ثُمَّ سرت الخيانة في بناتها بحكم الوراثة، وإن كانت الخيانة تختلف في كلِّ أنثىٰ بحسبها.

وفي حديثٍ ضعيفٍ رواه البيهقيُّ في "دلائل النبوة" عن ابن عمر مرفوعًا: «**فُضِّلْتُ على آدمَ -عليه السَّلام- بخَصْلَتَيْنِ: كان شَيْطَاني كافِرًا فأعانني اللهُ عليه حتَّى أسْلَمَ، وكُنَّ أزْوَاجي عَوْنًا لي، وكان شَيْطَانُ آدمَ كافِرًا وزَوْجَتُهُ كانتْ عَوْنًا لَهُ على خَطِيئَتِهِ**».

وروىٰ ابن عساكر عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: ذكر آدمُ محمدًا رسول الله عليهما الصلاة والسلام فقال: «إنَّ أفضل ما فُضِّل به عليَّ ابني صاحب البعير أنَّ زوجته كانت عَوْنًا له علىٰ دينه، وكانت زوجتي عَوْنًا لي علىٰ الخطيئة».

ولا تفهمنَّ مِن خيانة حوَّاء عليه السلام إتيان الفاحشة فإنَّ هذا الفهم باطلٌ لوجوهٍ:

منها: أنه لم يكن معها في الجنَّة مخلوقٌ غير زوجها.

ومنها: أنَّ زوجها نفسه لم يقربها إلَّا بعد الخروج من الجنَّة كما جاء في بعض الآثار[1].

ومنها: أن حوَّاء عليها السلام من جملة النِّساء اللَّاتي قيل بنبوتهنَّ[2].

---

(١) ونحن لا نرىٰ مانعًا من قربانه لها في الجنَّة كما قيل بذلك أيضًا بل قد قيل إنَّ قابيل وُلِدَ في الجنَّة.

(٢) وهنَّ حوَّاء، وأمُّ موسىٰ، وسارة أمُّ إسحاق، ومريم أمُّ عيسىٰ عليهم السلام، قال بنبوتهنَّ ابن حزمٍ وجماعةٌ من العلماء، والجمهور علىٰ أنَّ النبوة خاصَّةٌ بالرجال، قال

والمقصود أنها خانت زوجها بحمله على الأكل من الشجرة، فلمَّا أكلا منها نزع عنهما لباسهما الذي كانا يلبسانه في الجنَّة فبدت لهما سوءاتهما وطَفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما.

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴾ [طه: ١١٨].

ففي هاتين الآيتين دليلٌ على أنهما كانا كاسيين في الجنَّة حتى وقعا في الخطيئة فعوقبا بنزع لباسهما، ثُمَّ أمر الله آدم وحوَّاء وإبليس بالهبوط إلى الأرض مع الإخبار بثبوت عداوة بعضهم لبعضٍ، وهي ساريةٌ في ذريَّتهم، فقال الله تعالى: ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

والصحيح أنَّ الأمرين بالهبوط واحدٌ غير أنه نيط بالأول الإخبار بثبوت عداوة بعضهم لبعضٍ، وبالثاني الاشتراط عليهم أنَّ مَن اتبع هداه الذي ينزله بعد ذلك[1] سعد وفاز، ومن أعرض عنه شقي وهلك.

في "بدء الأمالي":

وما كانتْ نَبِيًّا قطُّ أُنثى ... ولا عَبْدٌ وشَخْصٌ ذو افتعال

ولشقيقنا الحافظ أبي الفيض كتاب "الائتساء بإثبات نبوة النساء".

(١) قال أبو العالية: «الهدى: الأنبياء والرسل والبيان».

وهذا من الحِكْمة في تكرار الأمر بالهبوط، وقد جُمعا معًا في قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] وهو يؤيِّد ما أبديناه.

أمَّا قوله: ﴿ٱهْبِطَا﴾ بالتثنية، فالخطاب فيه موجه لآدم وإبليس، وحوَّاء تابعة لآدم عليهما السلام، ومُنطويةٌ تحت لوائه.

كيف توصل الشيطان إلى الوسوسة؟

سؤال تردَّد علىٰ الألسنة والشِّفاه، وإشكالٌ لم يجد المُستشكِل له حلًّا يرضاه، وعرض له المُفسِّرون وغيرهم بأجوبةٍ لا تروي غليلًا، ولا تشفي عليلًا.

فقيل: أنه كلَّمهما في الأرض وهما في السماء فسمعا كلامه ووسوسته.

وقيل: كلَّمها من باب الجنَّة.

وقيل: دخل في فم الحية، ويحكون في ذلك حكايةً طويلةً مأخوذةً من الإسرائيليَّات.

وفي "الحلية" بإسنادٍ ضعيفٍ عن ابن عبَّاسٍ مرفوعًا: «قال إبْلِيسُ لرَبِّهِ عزَّ وجلَّ: يا ربِّ قد أُهْبِطَ آدَمُ، وقد عَلِمْتُ أَنَّهُ سيكون له كتابٌ ورُسُلٌ، فما كتابُهُمْ ورُسُلُهُمْ؟ قال اللهُ تعالى: رُسُلُهُمُ الملائكةُ والنَّبيُّون منهم، وكُتُبُهُمُ التَّوراةُ والإنجِيلُ والزَّبُورُ والفُرْقَانُ، قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوَشْمُ، وقُرْآنُكَ الشِّعْرُ، ورُسُلُكَ الكَهَنَةُ، وطعامُكَ ما لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه، وشَرَابُكَ كُلُّ مُسْكِرٍ، وحَدِيثُكَ الكذبُ، وبيتك الحَمَّامُ، ومَصَائِدُكَ النِّسَاءُ، ومُؤَذِّنُكَ المِزْمَارُ، ومَسْجِدُكَ الأسْوَاقُ».

وقيل: أوقع في قلبهما الوسوسة بطريق الإلهام مع بعده عنهما، وقيل غير ذلك.

والصواب في الجواب: أنه دخل الجنَّة عاصيًا، ووسوس لهما مشافهةً.

ذلك أنَّ الأمر نوعان:

الأول: أمرٌ تكليفيٌّ يوجب الفعل على المُكلَّف مع بقاء اختياره في أن يفعل وأن لا يفعل.

مثلًا قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣] يوجب الصلاة على عموم المكلَّفين مع بقاء اختيارهم في أن يصلُّوا فيفوزوا برضا الله، وأن لا يصلُّوا فيبوؤا بغضب الله، ولا إجبار فيه، ولهذا تجد كثيرًا من المكلَّفين لا يصلُّون، وهكذا سائر الأوامر التكليفية في القرآن والسُّنَّة.

الثاني: أمرٌ تكوينيٌّ أو قدريٌّ، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وهذا لابد من وقوعه حتمًا من غير أن يكون للشخص في وقوعه اختيار أو إرادة، نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] فكانوا قِرَدَةً. لا يجوز أن يقع غير ذلك.

ولا شك أنَّ قوله تعالى للشيطان: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] من النوع الأول، وهو نظير أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فكما أنه عصى بترك السجود، كذلك عصى بدخول الجنَّة بعد أمره بالخروج منها.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ

﴿ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] إشارةٌ واضحةٌ إلى أنَّ في إمكانه دخول الجنَّة، وتمكنه من إخراجهما بوسوسته، ولو لم يكن قادرًا على ذلك لما حذَّرهما الله منه.

وقد جعل ابن القيِّم وابن كثيرٍ الأمر بخروج الشيطان، من النوع الثاني، وهو سهوٌ منهما عما قرَّرناه.

ومما يؤيِّد أنه من النوع الأول اقترانه بالتعليل ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، والتعليل لا يقترن إلَّا بالأمر التكليفيِّ، لبيان سبب توجيهه إلى المكلَّف أو لترغيبه في امتثاله.

ولا ريب في أنَّ سبب أمر الشيطان بالخروج من الجنَّة كونه رجيمًا، وكونه تكبَّر في مكانٍ لا ينبغي فيه التكبُّر كما أفادته الآيتان السابقتان، أمَّا الأمر التكوينيُّ فلا يمكن اقترانه بالتعليل؛ لأنه لا دخل فيه لفعل الشخص ولا لاختياره كما سبق.

كيف وقعت المخالفة من آدم عليه السلام

سؤالٌ طالما خاض الناس في السؤال عنه، ملتمسين المخرج مما فيه من إشكال، وكلٌّ قال حسب اجتهاده وما ظهر له صوابه.

فقيل: أكل من الشجرة وهو سكران، وهذا قولٌ باطلٌ، حكيناه لنُنبِّه على فساده.

وقيل: أكل من جنس الشجرة لا من عينها، كأنَّ إبليس غرَّه بالأخذ بالظاهر.

وهذا ضعيفٌ لمخالفته لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] فهذا تعيينٌ لشجرةٍ بعينها.

وقيل: حمل النهي على التنزيه دون التحريم، وهو ضعيفٌ أيضًا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] قرينةٌ على التحريم.

وقيل: أكل متأوِّلًا لرغبة الخلد؛ لأن الله حين أباح له الجنَّة يأكل منها رَغَدًا حيث شاء، وأخبره أنه لا يجوع فيها ولا يَعْرَى ولا يظمأ فيها ولا يَضْحَى لم يُشِر إلى خلوده فيها، فوسوس إليه الشيطان من هذه الجهة.

وهو ضعيفٌ أيضًا، إذ كيف يقال له: «لا تأكل منها فتكون من الظالمين»، ثُمَّ هو يرجو أن يكون من الخالدين؟!.

وقيل: هو من باب «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين»، وهذا كلامٌ خطابيٌّ يُقصَد به الاسترواح، ثُمَّ هو يشتمل على تناقضٍ، فإنَّ الحسنة لا يمكن أن تكون سيِّئةً، لا بالنسبة للمقرَّبين ولا غيرهم.

وقيل: أكل قبل النبوة وهذا ضعيفٌ؛ لأن الله نبَّأه حين علَّمه الأسماء.

وقيل: أكل ناسيًا ؛بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، «أي: عهد إليه ألَّا يقرب الشجرة»، كما قال ابن عبَّاسٍ وغيره.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر والبيهقيُّ في "الأسماء والصفات" عن ابن عبَّاسٍ قال: «خلق الله آدمَ مِن أَدِيمِ الأرضِ يوم الجُمُعَةِ بعد العصر فسمَّاه آدم، ثُمَّ عهد إليه فنسي فسمَّاه الإنسان».

قلت: ثبت أنَّ الله خلق آدم يوم الجمعة، ففي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عليه**

الشَّمْسُ يومُ الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدمُ، وفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها، ولا تَقُومُ السَّاعَةُ إلَّا في يومِ الجُمُعَةِ».

وفي "سنن الترمذيِّ" و"مستدرك الحاكم" عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «لَمَّا خَلَقَ الله آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فسَقَطَ مِن ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هو خَالِقُها مِن ذُرِّيَّتِهِ إلى يومِ القِيامَةِ، وجعل بين عَيْنَيْ كلِّ إنسانٍ منهم وَبِيصًا مِن نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على آدَمَ فقال: أيْ رَبِّ، مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيَّتُكَ، فرأى رَجُلاً منهم فأَعْجَبَهُ وبِيصُ ما بين عَيْنَيْهِ، فقال: أيْ رَبِّ مَن هذا؟ فقال: هذا رَجُلٌ مِن آخِرِ الأُمَمِ مِن ذُرِّيَّتِكَ يُقالُ له داودُ فقال: رَبِّ كم جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قال: سِتِّينَ سَنَةً، قال: أيْ رَبِّ، زِدْهُ مِن عُمْرِي أربعينَ سَنَةً، فلمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جاءَهُ مَلَكُ الموتِ، فقال: أَوَلَمْ يَبْقَ مِن عُمْرِي أربعون سَنَةً؟ قال: أَوَلَمْ تُعْطِها ابنَكَ داودَ قال: فجَحَدَ آدَمُ فجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، ونَسِيَ آدَمُ فنسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وخَطِئَ آدمُ فخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ». قال الترمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وصحَّحه الحاكم على شرط مسلمٍ.

وللحديث طرقٌ جاء في بعضها: قال: «فأخْرَجَ اللهُ الكتاب وأقام عليه البَيِّنة -يعني بهيئتِهِ لداود- فأتمَّها لداود مائة سنة وأتمها لآدم عمره ألف سنةٍ».

والمقصود: أنَّ آدم عليه السلام أكل من الشجرة ناسيًا غير متعمِّدٍ مخالفة ما نهاه الله عنه. وهذا هو الجواب الصحيح المؤيَّد بالأدلة.

فإن قيل: إذا كان الأمر كذلك، فَلِمَ وسمه الله بالعصيان في قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢]؟

فالجواب: أنَّ المحذور هو أن يقع الشخص في الذنب عامدًا إليه مقتحمًا له مع العلم به، وقد عصم الله آدم من هذا ونزَّهه عنه.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي المعافري: «إنَّ الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة، فوقع فيها متعمِّدًا ناسيًا، فقيل في تعمُّده: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وقيل في بيان عُذْره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾. ونظيره أن يحلف الرجل لا يدخل دار أبدًا، فيدخلها متعمِّدًا ناسيًا ليمينه، أو مخطئًا في تأويله، فهو عامِدٌ ناسٍ، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان وجاز للمولى أن يقول في عبده: «عصى» تحقيرًا وتعذيبًا ويعود عليه بفضله فيقول: «نسي» تنزيهًا.

ولا يجوز لأحدٍ منا أن يخبر بذلك عن آدم إلَّا إن ذكرناه في أثناء قول الله عنه، أو قول نَبِيِّه، وأمَّا أن نبتدئ في ذلك من قِبَل أنفسنا فليس بجائزٍ لنا في آبائنا الأدنين إلينا المماثلين لنا، فكيف بأبينا الأقدم الأعظم النبي المقدَّم الذي عذره الله وتاب عليه وغفر له؟!».اهـ وهو حسنٌ جيِّدٌ.

يُضاف إليه أنَّ المؤاخذة بالنِّسيان رفعت عن هذه الأُمَّة.

فقد ورد عن أبي ذرٍّ وثوبان وابن عبَّاسٍ وغيرهم من طرق عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**إنَّ اللهَ تَجاوزَ عن أُمَّتي الخطأ والنِّسيان وما اسْتُكْرِهُوا عليه**».

وروى ابن أبي حاتمٍ من طريق أبي بكر الهذلي، عن شهر، عن أم الدرداء، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لي لأُمَّتي عن ثلاث: عن الخطأ والنِّسيان والاسْتِكْراه**».

قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن فقال: أجل أما تقرأ بذلك قرآنًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة في نزول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] «**قال الله: نعم**».

وفيه أيضًا عن ابن عبَّاسٍ: «**قال الله: قد فعلت**».

وفي "صحيح مسلم" أيضًا عن أبي هريرة، عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها ما لم يَتكَّلموا أو يَعْمَلُوا به**».

قال الأُبِّيُّ في "شرح مسلم": «في العتبية: قال رجل من أصحاب عيسى لعيسى عليه السلام: إنك تمشي على الماء!، فقال له عيسى: وأنت إن كنت لم تخط تمشي على الماء، فقال: لم أخط خطيئة قطُّ، فقال له عيسى عليه السلام: فامشِ على الماء، فمشى ذاهبًا فلمَّا رجع غرق ببعض الطريق، فدعى عيسى عليه السلام فأخرجه، فقال له عيسى: ألم تزعم أنك لم تخط؟ فقال: لم أخط قطُّ، ولكن وقع في نفسي أني مثلك. قال ابن رشدٍ في "البيان": «هذا الذي عوقب به صاحب عيسى عليه السلام، تجاوز الله سبحانه لهذه الأُمَّة عنه».اهـ» قال الأُبِّي: «وكذلك نصَّ غيره على أنه خاصٌّ بهذه الأُمَّة».اهـ

لطيفتان

(**اللطيفة الأولى**): روى البيهقيُّ في "الشعب" عن عبدالله المغربي يقول: «تفكَّر إبراهيم عليه السلام ليلةً من الليالي في شأن آدم عليه السَّلام قال: يا رب خلقته ونفختَ فيه من روحك، وأسجدتَ له ملائكتك، ثمَّ بذنبٍ واحدٍ

ملأتَ أفواه الناس حتىٰ يقولوا: {وعصىٰ آدم ربه فغوىٰ} [طه: ١٢١] قال: فأوحىٰ الله أن يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب علىٰ الحبيب شديدةٌ».

قلت: في هذا الأثر عبرةٌ بالغةٌ تفيد أنَّ الله يكره من أحبابه أن يُخالفوه، ولذا أعلن مخالفة آدم عليه السلام، ليحرصوا علىٰ تجنُّب المخالفة لله إن أرادوا أن يكونوا أحبابه[1].

(**اللطيفة الثانية**): روىٰ الزبير بن بكار في "الموفقيات" عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: سألت عمر عن قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١]. قال: كان رجالٌ من المهاجرين في أنسابهم شيءٌ فقالوا يومًا: والله لوددنا أن الله أنزل قرآنًا في نسبنا، فأنزل الله ما قرأتَ. ثُمَّ قال: إنَّ صاحبكم -يعني عليًّا عليه السلام- إن وَلِي زهد، ولكن أخشىٰ عجب نفسه[2] أن يذهب به.

---

(١) ومن الإشارات في هذا المعنىٰ ما ذكره ابن القيم في كتاب "الفوائد" حيث قال: «تالله ما نفعه عند معصيته عِزُّ ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ ولا شَرَف ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ ولا خِصِّيصَة ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ ولا فَخْر ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، وإنما انتفع بذُل ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾. لما لبس درع التوحيد علىٰ بدن الشكر، وقع سهم العدو -يعني إبليس- منه في غير مقتل، فجرحه، فوضع عليه جبار الانكسار فعاد كما كان، فقام الجريح كأن لم يكن به قَلَبَة».اهـ.

«قَلَبَة» بفتحات: ألم.

(٢) في هذا التعبير تجاوزٌ وتسامحٌ، فلم يكن عند عليٍّ عليه السلام إعجاب بنفسه، ولا زهو

قلت: يا أمير المؤمنين إنَّ صاحبنا من قد علمت، والله ما نقول إنه غيَّر ولا بدَّل ولا أسخط رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أيام صحبته.

فقال: ولا في بنت أبي جهلٍ وهو يريد أن يخطبها علىٰ فاطمة؟

قلت: قال الله في معصية آدم عليه السلام ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وصاحبنا لم يعزم علىٰ إسخاط رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، ولكن الخواطر التي لم يقدر أحدٌ علىٰ دفعها بنفسه، ربما كانت من الفقيه في دين الله العالم بأمر الله، فإذا نُبِّه إليها رجع وأناب.

فقال: يا ابن عبَّاسٍ! من ظن أنه يَرِد بحوركم فيغوص فيها معكم حتىٰ يبلغ قعرها فقد ظنَّ عجزًا.

في الأثر تقرير عمر لزهد عليٍّ، واعترافه بسعة علوم آل البيت النبويِّ،

بحاله، كما شهد له رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فقد قال الزبير لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فردَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «إنَّه ليس به زَهْوٌ ولتُقاتِلَنَّهُ وأنتَ له ظالمٌ»؛ يشير إلي وقعة الجمل، ولكنها الثقة والاعتداد، ثقةٌ بشجاعته الفائقة، واعتدادٌ بعِلْمِهِ الذي لم يبلغ شأوه فيه أحدٌ. قال ابن عبَّاسٍ: سلم الصحابة لعليٍّ تسعة أعشار العلم، وشاركهم في العشر العاشر. فهذه الثقة والاعتداد يسميها مثل عمر والزبير رضي الله عنهما إعجابًا وزهوًا، علىٰ سبيل التجوُّز، ولكن الحاسدين والحاقدين يتخذون مثل هذه التسمية منقصةً له عليه السلام، وقد برَّأه الله من ذلك وطهَّره، كيف وقد نزل فيه وفي ولديه الحسن والحسين وزوجه فاطمة عليهم السلام، قول الله تعالىٰ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

بحيث يعجز من حاول بلوغ مداها، وفيه ما يتعلَّق بمسألتنا أن ابن عبَّاسٍ يروي في قوله تعالىٰ: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أن معناه: لم نجد له عزمًا على المعصية، وفي هذا تأكيدٌ بالغٌ لمعنىٰ النِّسيان الذي رجَّحناه وأيَّدناه.

توبة آدم عليه السلام

قال الله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] فما هي تلك الكلمات التي تلقَّاها؟

في تعيينها أحاديث وآثار:

منها: ما روي عن مجاهدٍ وسعيد بن جُبيرٍ وأبي العالية والربيع بن أنسٍ وقتادة والحسن ومحمد بن كعبٍ وخالد بن معدان وعطاءٍ الخراسانيِّ وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ومنها: ما رواه الحاكم وصحَّحه: عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾: «قال: أي ربِّ ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلىٰ، قال: أي ربِّ ألم تَنفُخ فيَّ مِن رُوحك؟ قال: بلىٰ، قال: أي ربِّ ألم تسبق إليَّ رحمتك قبل غضبك؟ قال: بلىٰ، قال: أي ربِّ أرأيت إن تبتُ وأصلحتُ أراجِعي أنت إلى الجنَّة؟ قال: نعم».

ومنها: ما رواه الطبرانيُّ في "الأوسط" والبيهقيُّ في "الدعوات" وابن عساكر بسند لا بأس به: عن بريدة رضي الله عنه: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**لمَّا أهبطَ اللهُ آدمَ إلى الأرضِ طافَ بالبيتِ أسبوعًا وصلَّى حِذاءَ البيتِ ركعتين، ثُمَّ قال: اللهمَّ أنتَ تَعْلَمُ سِرِّي وعَلانِيتي، فاقبل مَعْذِرَتي،**

وتَعْلَمُ حاجَتي فأعْطِني سُؤْلي، وتَعْلَمُ ما عندي فاغْفِرْ لي ذَنْبِي، أسألك إيمانًا يُباشِر قَلْبي، ويَقِينًا صادقًا حتى أعلم أنه لا يُصِيبني إلَّا ما كتبتَ عليَّ، ورَضِّني بقضائك.

فأوحى الله: يا آدم إنك دعوتنا بدعاءٍ فاستجبتُ لك فيه، ولن يدعوني به أحدٌ مِن ذُرِّيَّتك إلَّا استجبتُ له وغفرتُ له ذنبه وفرَّجتُ همَّه وغَمَّهُ واتجرت له مِن وراء كلِّ تاجرٍ وأتته الدُّنيا راغمةً وإن كان لا يُريدها».

وورد نحوه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا وموقوفًا.

ومنها: ما رواه أبو نعيم في "الحلية" عن عبيد بن عمير قال: «قال آدم: يا ربِّ أرأيت ما أتيتُ أشيء كتبته عليَّ قبل أن تخلقني، أو شيءٌ ابتدعته على نفسي؟ قال: بل شيءٌ كتبته عليك قبل أن أخلقك. قال: يا ربِّ فكما كتبته عليَّ فاغفره لي. فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

ومنها: ما رواه الطبرانيُّ والحاكم والبيهقيُّ وابن عساكر، من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الخَطِيئَةَ قال: يا ربِّ أسألُكَ بحَقِّ محمَّدٍ لما غَفَرْتَ لي، فقال الله: يا آدمُ، وكيف عَرَفْتَ محمَّدًا ولم أَخْلُقْهُ؟ قال: يا رَبِّ، لأَنَّك لَمَّا خَلَقْتَني بيدِك ونَفَخْتَ فيَّ مِن رُوحِك رَفَعْتُ رأسي فرأيتُ على قوائمِ العرشِ مَكْتُوبًا لا إلهَ إلَّا الله محمَّدٌ رسولُ الله فعَلِمْتُ أَنَّك لم تُضِفْ إلى اسمِك إلَّا أحبَّ الخَلْقِ إليك، فقال اللهُ: صَدَقْتَ يا آدمُ، إنَّهُ لأحبُّ الخَلْقِ إليَّ ادعُني بحَقِّهِ فقد غَفَرْتُ لك ولولا محمَّدٌ ما خَلَقْتُكَ».

قال البيهقيُّ في "دلائل النبوة": «تفرَّد به عبدالرحمن بن زيد بن أسلم من

هذا الوجه، وهو ضعيفٌ».اهـ ووافقه الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية".

وعندي أنه حديثٌ حسنٌ لتأيده بشاهدين:

أحدهما: ما رواه أبو الحسين بن بشران ومن طريقه ابن الجوزيِّ في كتاب "الوفا بفضائل المصطفىٰ" عن ميسرة الفَجْر قال: قلت: يا رسول الله متىٰ كنت نبيًّا؟

قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ واسْتَوَى إلى السَّماءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ، وخَلَقَ العَرْشَ، كَتَبَ على سَاقِ العرشِ: محمَّدٌ رسولُ الله خاتِمُ الأنبياءِ، وخَلَقَ الله تعالى الجنَّة التي أَسْكَنَها آدمَ وحَوَّاءَ، فكتبَ اسمي على الأبوابِ والأوْراقِ والقِبابِ والخِيام، وآدمُ بين الرُّوحِ والجَسَدِ، فلمَّا أَحْياهُ الله تعالى نَظَرَ إلى العرشِ فرأى اسمي، فأَخْبَرَهُ الله تعالى أَنَّه سَيِّدُ وَلَدِكَ. فلمَّا غَرَّهُما الشيطانُ تابا واستَشْفَعا باسمي إليه**». «إسناده قويٌّ» كما قال الحافظ ابن حجرٍ.

ثانيهما: ما رواه ابن المنذر في "تفسيره": عن محمد بن عليِّ بن حسين بن عليِّ بن أبي طالبٍ عليهم السلام قال: «لَمَّا أصاب آدمُ الخَطِيئةَ عَظُمُ كَرْبُهُ، واشتدَّ نَدَمُهُ، فجاءه جبريلُ، فقال: يا آدمُ، هل أدلُّك علىٰ باب تَوْبَتِك الذي يتوبُ اللهُ عليك منه؟ قال: بلىٰ. قال: قُمْ في مَقامِكَ الذي تُناجي فيه ربَّك فمَجِّدْهُ وامْدَحْ، فليس شيءٌ أحب إلىٰ الله مِن المَدْحِ. قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل: لا إله إلَّا الله وَحْدَهُ لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ يُحيي ويُميتُ، وهو حيٌّ لا يموتُ بيده الخَيرُ، وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ثُمَّ تَبُوءُ بخَطِيئتك فتقول: سبحانك اللهمَّ وبحَمْدِكَ لا إله إلَّا أنتَ ،ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وعَمِلْتُ السُّوء فاغْفِرْ لي إنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، اللهمَّ إنِّي أسألك بجاه محمَّدٍ عَبْدِكَ وكَرَامَتِهِ عليك أن تَغْفِرَ لي خَطِيئتي.

قال: ففعل آدم، فقال الله: يا آدم من علَّمك هذا؟ قال: يا ربِّ إنَّك لَمَّا نَفَخْتَ فيَّ الرُّوحَ، فقُمْتَ بَشَرًا سَوِيًّا أسمع وأعْقِلُ وأنظُرُ، رأيتُ على ساق عَرْشِكَ مَكْتوبًا: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلَّا الله وَحْدَهُ لا شَريك له، محمَّدٌ رسول الله»، فلما لم أرَ على إثْرِ اسمك اسم مَلَكٍ مُقرَّبٍ ولا نبيٍّ مرسلٍ غير اسمه، علمتُ أنَّه أكرم خَلْقِكَ عليك. قال: صَدَقْتَ، وقد تبتُ عليك وغَفَرْتُ لك خطيئتك. قال: فحمد آدم ربَّه وشكره، وانصرف بأعظم سرورٍ، لم ينصرف به عبدٌ من عند ربِّه، وكان لباسه النور

قال الله تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧] ثياب النور. قال: فجاءته الملائكة أفواجًا تُهنِّئه يقولون: لتهنك التوبة يا أبا محمَّدٍ».

وقد يقول قائل: كيف نجمع بين هذه الأخبار؟ وأيها نرجح أنَّ آدم قاله؟

فيقال له: إنما يلجأ إلى الترجيح إذا وجد تدافعٌ بين مضمون الأخبار، وتعذَّر الجمع بينها. وأنت إذا تأمَّلت الآثار السابقة وجدتها متوافِقةً متناسقةً؛ لأنها تشتمل على إقرارٍ بوحدانية الله، وثناءٍ عليه بنِعَمِهِ، واعترافٍ بالذنب، ودعاءٍ وتضرُّعٍ وتوسُّلٍ إليه في قبول التوبة، فلا مانع أن يكون آدم عليه السلام تقرَّب إلى الله بتلك المعاني كلِّها، كما في أثر جعفرٍ الباقر المشتمل على معظمها.

كما جاء عن قتادة في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قال: «ذكر لنا أنه قال: يا ربِّ أرأيت إن تبتُ وأصلحتُ؟ قال: فإنِّي إذا أرجعك إلى الجنَّة؟ قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فاستغفر

آدم ربَّه، وتابَ إليه، فتابَ عليه. وأمَّا عدوُّ الله إبليس فوالله ما تنصَّل مِن ذنبه، ولا سأل التوبة حين وقع بما وقع به، ولكنه سأل النظرة إلى يوم الدِّين، فأعطى اللهُ كلَّ واحدٍ منهما ما سأل». رواه البيهقيُّ في "الشعب".

ففي هذا الأثر إشارةٌ إلى ما قلناه آنفًا، غاية ما في الأمر أنَّ الرواة اقتصر كلٌّ واحدٍ منهم على بعض الكلمات. ولهذا رغَّب أهل الحديث في جمع طرق الحديث واستيفائها ليمكن حصر ألفاظه، وتفهُّم معناه، واقتصار القرآن على قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا ينفي غيره من الكلمات، كما قد يتوهَّم مَن لا تحقيق لديه.

وإنما اقتصر على تلك الكلمة -فيما نرى- ليوازن بين آدم حيث اعترف بذنبه، طالبًا غفران ربِّه، وبين إبليس الذي استمرَّ على عصيانه، طالبًا النظرة ليغوي الناس ويجرُّهم إلى عذاب الله وهوانه.

يضاف إلى ذلك: إنَّ الاعتراف بالذنب هو المقصود من التوبة، وما عداه من الحمد والثناء والتوسل والدعاء فكله استشفاعٌ يقدِّمه العبد بين يدي رغبته، ليحظى بقبول توبته، وفي الأمثال السائرة: مَن أقرَّ بذنبه غَفَرَ اللهُ له.

ومن مقتضيات الإيجاز في أسلوب القرآن الكريم الاكتفاء من الخبر بفائدته، ومن القصة بخُلاصتها.

نبوة آدم عليه السلام

ظهر في هذا الوقت العصيب بعض الدُّخلاء على العِلْم والدِّين بمظهر المصلح المُجدِّد وكان من إصلاحه وتجديده أن أنكر نبوة آدم عليه السلام

فصدق عليه المثل العربي: «أَوَّلُ الدَّنِّ دُرْدِيٌّ».

وحكمت محكمة دمنهور الشرعية بالتفريق بينه وبين زوجه لرِدَّته بهذا الإنكار، واستأنف في محكمة الإسكندرية واعترف بأنه لم يرَ القرآن ذكر آدم بالنبوة، وأنه يعتقدها ، وهذا اعترافٌ بجهله الفاضح وتقليده الأعمىٰ، وكيف ساغ له أن يعتقد مالا دليل عليه في نظره؟ أليس هذا هو التقليد الأعمىٰ في أقبح صورةٍ ؟!.

ثُمَّ جاء آخر من بعده كتب في قصص الأنبياء فاعترف بنبوة آدم عليه السلام، لكنه توقَّف في رسالته وفوَّض علمها إلىٰ الله تعالىٰ، فوقع في غفلةٍ كبيرةٍ عن دلالة القرآن، وأبان عن جهلٍ بنصوص السُّنَّة وإجماع الأئمَّة، بل مما أكد له عدم رسالته -حسب فهمه- أنه رأىٰ في حديث أبي هريرة في الشفاعة الوارد في "صحيح مسلم" أنَّ الناس يذهبون إلىٰ نوحٍ فيقولون له: أنت أول رسل الله إلىٰ الأرض، قال: «فلو كان آدم رسولًا لما ساغ هذا القول».

قال أيضا: «والعلماء القائلون برسالة آدم يؤوِّلون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان، وهو تأويلٌ متكلَّفٌ». هذا كلامه.

وهو باطلٌ حسبما يتبيَّن مما يأتي بحول الله تعالىٰ.

دلالة القرآن على نبوته

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] الآية.

أخبر الله في هذه الآية الكريمة أنه علَّمه أسماء المُسمَّيات بدون واسطةٍ، وأمره أن يُنبئ بها الملائكة عليهم السلام، وهذا تسجيلٌ لنبوَّته.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] الآية، ففي هذه الآية أباح الله له وحرَّم عليه بدون واسطة، وهذا تسجيلٌ ثانٍ لنبوَّته، والخطاب متوجِّهٌ لآدم، وحوَّاء تابعة له، وبواسطته توجَّه عليها الخطاب، فهو رسولٌ إليها من هذه الحيثيَّة.

ودليل آخر من القرآن علىٰ رسالته، وهو:

قصة هابيل وقابيل

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

ذكر السُّدِّي عن أبي مالكٍ وأبي صالحٍ عن ابن عبَّاسٍ، وعن مُرَّة، عن ابن مسعودٍ، وعن ناسٍ من الصحابة: أنَّ آدم كان يُزوِّج ذكر كل بطنٍ بأنثىٰ الأخرىٰ، وأنَّ هابيل أراد أن يتزوَّج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها علىٰ أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوِّجه إياها فأبىٰ، فأمرهما أن يُقرِّبا قُربانًا وذهب آدم إلىٰ مكَّة ليحج،

واستحفظ السموات على بنيه فأَبَيْن، والأرضين والجبال فأَبَيْن فتقبَّل قابيل بحفظ ذلك فلمَّا ذهب قَرَّبا قربانهما، فقرَّب هابيل جذعةً سَمينةً وكان صاحب غنمٍ، وقرَّب قابيل حِزْمَةً من زرعٍ مِن رديء زَرْعِهِ، فنزلت نارٌ فأكلت قُربان هابيل وتركت قُربان قابيل، فغضب وقال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ حتى لا تنكح أختي فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠] فأتاه وهو نائمٌ فرفع صخرةً فشدخ بها على رأسه، وقيل خنقه خَنْقًا شديدًا وعَضَّه عَضًّا كما تفعل السِّباع.

ثُمَّ ندم فضمَّه إليه حتى أروح -تغيرت رائحته- وعكفت عليه الطير والسِّباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، وكره أن يأتي به آدم فيحزنه، فبعث الله غُرابين فاقْتتلا، فقَتَل أحدهما الآخر، ثُمَّ حَفَرَ له بمنقاره وجعل يَحْثي عليه التراب حتى واراه فقال قابيل: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة: ٣١]. وكان أول قتلٍ وقع في الأرض؛ ولهذا لم يهتد لدفن أخيه حتى تعلَّم من الغراب.

وفي "الصحيحين" و"السنن" غير "أبي داود" عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلَّا كان على ابن آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها؛ لأنَّه كان أوَّلَ مَن سَنَّ القَتْلَ**».

وقول الحسن في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧]: «كانا من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه وإنما كان القُربان في بني إسرائيل، وكان أول من مات».

باطلٌ وغلطٌ قطعًا إذ كيف يكون من بني إسرائيل ويكون أول من مات؟!! وبين آدم وبني إسرائيل مئات القرون من الزمان مات وقتل فيها ألوف من الناس، فهل بقي أولئك الألوف من غير دفنٍ، حتى تعلَّمه بنو إسرائيل من الغراب ؟!!

والمقصود: أنَّ القصة وقعت لابني آدم لصُلْبه بنصِّ القرآن والحديث الصحيح، إذا عرف هذا فالآية تفيد أنهما قرَّبا إلى الله قُربانًا، وأنَّ أحد الأخوين أخبر أخاه بأنَّ الله إنما يتقبَّل من المتقين، وأنه إن قتله يبوء بإثمهما وأنه يكون من أصحاب النار، وأنَّ النار جزاء الظالمين، وأن خوف الله ربِّ العالمين منعه أن يبسط إليه يده بالقتل.

فهذه عِدَّة أحكامٍ دينيَّةٍ شرعيَّةٍ لا تُدرَك ولا تُعرَف إلَّا من طريق رسولٍ، ولا رسول في ذلك الوقت إلَّا آدم عليه السلام، فكان هو الرسول إلى أولاده وأهل بيته، وهذه الدلالة من الوضوح بالمكان الذي لا يخفى.

دلالتان من القرآن أيضًا

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

في هذه الآية دلالةٌ على رسالة آدم من وجهين:

الأول: في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾، فإنَّ الإشارة بـ﴿تِلْكَ﴾ إلى الرسل السابق ذكرهم في سورة (البقرة)، وهم آدم وموسى وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وداود.

ثُمَّ أجمل عددهم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

الثاني: في قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ وهم آدم وموسىٰ والنبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

أمَّا آدم فقد سبق أنَّ الله علَّمه الأسماء، وأمره ونهاه، وكلُّ ذلك بغير واسطةٍ كما سيأتي في الحديث، وأمَّا موسىٰ فلقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وأمَّا النبيُّ فكان تكليم الله له ليلة المعراج.

دلالة أخرى من القرآن

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: إسماعيل وإسحاق، و﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾: موسىٰ وهارون.

ومَن فسَّرهما بغير هذا فقد ذَهَلَ؛ لأنَّ الله اقتصر علىٰ هؤلاء لحِكْمةٍ ظاهرةٍ، هي أنَّ آدم أبو البشر، ونوحًا أبوهم الثاني، وإبراهيم جعل الله في ذريَّته النبوة والكتاب بواسطة ولَدَيْه إسماعيل وإسحاق، وموسىٰ أتىٰ بالتوراة فيها تفصيل كلِّ شيءٍ، وأمَّته أكثر الأمم من عهد آدم إلىٰ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وأنبياء بني إسرائيل بعده كلُّهم تابعون له حتىٰ عيسىٰ عليه السلام، ولهذا لما سمع نفرٌ مِن الجِنِّ القرآنَ من النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٠].

ولم يشيروا إلى عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الإنجيل غالبه مواعظ، وما فيه من الأحكام لا يخرج عن التوراة إلَّا في النادر، كما قال تعالى على لسان عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

إذا عُلِمَ هذا فالاصطفاء في الآية اصطفاء رسالةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقوله تعالى في إبراهيم: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ١٣٠] وقوله تعالى في جملةٍ من الرسل: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]، وقوله تعالى لموسى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ولا يَرِدُ على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] فإنَّ هذا ليس اصطفاء رسالةٍ بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

بل قوله: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] يؤكِّد ذلك أيضًا إذ لو كان اصطفاء رسالةٍ لقال: «واصطفاكِ على العالمين»؛ لأن الرسول مُفضَّلٌ على العالمين رجالًا ونساءً كما هو معلومٌ بالضرورة.

وأيضًا فإنَّ الله قال عنها: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] وهذا قاطعٌ في أنَّ اصطفاءها ليس اصطفاء رسالةٍ ولا نبوَّةٍ.

دلالة السُّنَّة النبوية

١- روىٰ الترمذيُّ وابن جريرٍ وابن مَرْدُويَه عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يَوْمَ القِيامَةِ ولا فَخْرَ، بيَدِي لِواءُ الحَمْدِ ولا فَخْرَ، وما مِن نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمَن سِواهُ إلَّا تحتَ لوائي، وأنا أوَّلُ مَن تَنْشَقُّ عنه الأرضُ ولا فَخْرَ...**» الحديث. قال الترمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ».

٢- روىٰ أحمد والنَّسائيُّ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو في المسجد فجلستُ فقال: «**يا أبا ذَرٍّ هل صَلَّيْتَ؟**». قلتُ: لا. قال: «**قُمْ فصَلِّ**». فقمتُ فصَلَّيتُ ثُمَّ جلستُ، فقال: «**يا أبا ذَرٍّ تعوَّذْ باللهِ مِن شَرِّ شياطين الإنسِ والجِنِّ**». قلتُ: يا رسول الله أو للإنس شياطينٌ؟ قال: «**نَعَمْ**». قلتُ: يا رسول الله الصَّلاةُ؟ قال: «**خَيْرٌ موضوعٌ، مَن شاءَ أقلَّ ومَن شاءَ أكثر**». قلت: يا رسول الله فالصومُ؟ قال: «**فرضٌ مُجزئٌ وعند الله مَزيدٌ**». قلت: يا رسول الله فالصَّدَقَةُ؟ قال: «**أضعافٌ مُضاعَفَةٌ**». قلت: يا رسول الله فأيهما أفضل؟ قال: «**جُهْدٌ مِن مُقِلٍّ أو سِرٌّ إلى فَقِيرٍ**». قلتُ: يا رسول الله أيُّ الأنبياء كان أوَّل؟ قال: «**آدمُ**» قلتُ: يا رسول الله ونبيًّا كان؟ قال: «**نَعَمْ نبيٌّ مُكَلَّمٌ**». قلتُ يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: «**ثَلاثُمائةٍ وبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا**» وقال مرَّةً: «**وخَمْسَةَ عَشَرَ**». قلتُ: يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم؟

قال: «آيةُ الكرسيِّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾». صحَّحه ابن حِبَّان والحاكم، وسلَّمه الذهبيُّ، وهذا مما رواه المسعوديُّ قبل اختلاطه.

٣- روىٰ ابن حِبَّان في "صحيحه" عن أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يا رسول الله كم الأنبياءُ؟ قال: «**مائة ألفٍ وأربعة وعشرون ألفًا**». قلتُ: يا رسول الله كم الرُّسُلُ منهم؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا**». قلتُ: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: «**آدمُ**». قلت: يا رسول الله نبيٌّ مرسلٌ؟ قال «**نَعَمْ، خَلَقَهُ اللهُ بيده ونَفَخَ فيه مِن رُوحِهِ ثُمَّ سَوَّاه قِبَلًا**».

وافق علىٰ تصحيحه الحافظ ابن كثيرٍ والحافظ ابن حجرٍ. ورواه عبد بن حُميد في "تفسيره" والآجريُّ في "الأربعين".

٤- روىٰ الطبرانيُّ وأبو الشيخ في "العظمة" وابن مَرْدُويَه عن أبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول الله أرأيتَ آدمَ، أنبيًّا كان؟ قال: «**نَعَمْ، كان نبيًّا رَسُولًا، كلَّمه اللهُ قِبلًا، قال له: يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزَوْجُكَ الجنَّةَ**». والحديث يُشير إلىٰ أنه كان رسولًا إلىٰ زوجته.

٥- روىٰ أحمد، والبخاريُّ في "التاريخ"، والبزَّار، البيهقيُّ في "الشعب": عن أبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الأنبياء كان أوَّل؟ قال: «**آدمُ**». قلت: يا رسول الله ونبيًّا كان؟ قال: «**نَعَمْ، نبيٌّ مُكَلَّمٌ**». قلت: كم كان المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا**».

٦- روىٰ ابن أبي حاتم، والطبرانيُّ، والبيهقي في "الأسماء والصفات": عن أبي أُمامة رضي الله عنه أنَّ رجلًا سأل رسولَ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال: يا رسول الله أنبيًّا كان آدم؟ قال: «**نَعَمْ، نبيٌّ مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ**». قال: كم بينه

وبين نوحٍ؟ قال: «**عشرة قرونٍ**» قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «**مائة ألفٍ وأربعة عشر جمًّا غفيرًا**». صحَّحه ابن حِبَّان والحاكم على شرط مسلمٍ، وسلَّمه الذهبيُّ.

٧- روى أحمد وابن المنذر والطبرانيُّ وابن مَرْدُويَه عن أبي أُمامة: أنَّ أبا ذرٍّ قال: يا نبيَّ الله أيُّ الأنبياء كان أوَّل؟ قال: «**آدمُ**». قال أوَنبيًّا كان آدم؟ قال «**نَعَمْ، نبيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللهُ بيَدِهِ ثُمَّ نَفَخَ فيه مِن رُوحِهِ ثُمَّ قال له: يا آدمُ، قِبلًا**». قال: يا رسول الله كم عِدَّة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرُّسلُ مِن ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا**». ولهذه الأحاديث طرقٌ ذكرها الحافظ السيوطيُّ في "الأمالي التفسيرية" بتوسُّعٍ.

وقد زعم بعض الناس أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] يعارض بعض هذه الأحاديث التي عينت عدد الأنبياء والرسل.

وهو زعمٌ باطلٌ، ومعاذ الله أن يكون بين القرآن والحديث تناقضٌ وتدافعٌ، والأمر هنا واضحٌ لولا الغفلة أو الغرض، فالحديث عرض لعددهم، والقرآن إنما عرض لقصصهم ولم يُشِر لعددهم، فأين التناقض المزعوم ؟!!

الإجماع

قال ابن حزمٍ في كتاب "مراتب الإجماع" تحت ترجمة: «باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماعٍ»، ما نصُّه: «واتفقوا أنَّ كلَّ نبيٍّ ذُكِرَ في القرآن حَقٌّ؛ كآدمَ وإدريسَ ونوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ ويونسَ وإبراهيمَ

وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ويوسفَ وهارونَ وداودَ وسليمانَ وإلياسَ واليسعَ ولوطٍ وزكريَّا ويحيىٰ وعيسىٰ وأيوب وذا الكِفْلِ».اهـ وكذا نقل الإجماع غير واحدٍ من العلماء.

استشكال حول رسالة آدم عليه السلام والجواب عنه

ثبت في "الصحيحين" في حديث الشفاعة الطويل: أنَّ الناس يطلبون من يشفع لهم فيذهبون إلىٰ آدم فيعتذر ويدلهم علىٰ نوحٍ فيذهبون إليه ويقولون: «أنت أوَّل رسول إلىٰ أهل الأرض».

فأخذ بعض الناس من هذا أنَّ آدم ليس برسول، وإلَّا لم يصح ذلك القول منهم، ولو تأمَّلوا لفظ الحديث جيِّدًا لوجدوا فيه جواب ما استغلق عليهم، فإنَّ آدم عليه السلام كان رسولًا إلىٰ زوجه في الجنة وبعد خروجه منها استمرَّت رسالته لأولاده، فلم تتعدَّ رسالته محيط بيته، أمَّا نوحٌ عليه السلام فهو أوَّل رسول إلىٰ أهل الأرض كما في الحديث؛ لأنَّ رسالته تجاوزت أهل بيته وأقاربه إلىٰ الأباعد والأجانب، فكان مرسلًا إلىٰ أُمَّةٍ مِن الناس، سمَّاهم الله قومه كما سمَّىٰ قوم هودٍ وصالحٍ، وكثر فيهم الكفر والعناد واللجاج حتىٰ دعا عليهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

آدم هو أبو البشر

يزعم بعض الناس أنَّ آدم ليس هو أول النوع الإنساني بل كان قبله أوادم كثيرة، ويستأنسون لهذا الزعم بأمور ثلاثة:

الأول: حديث يروونه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يفيد هذا المعنى وهو مذكور في "السيرة الحلبية" وغيرها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] الآية، فآدم إنما خلف غيره من الأمم التي كانت تعمر الأرض قبله وبادت.

الثالث: أنَّ علماء الجيولوجيا يرون بقايا عظام لآدميين تخالف عظام الآدميين الموجودين الآن، يرجع تاريخ وجودها إلى مئات الآلاف من السنين، وأنَّ الجنس الآدميَّ الموجود الآن لا يمتُّ إلى ذلك الجنس الآدميِّ السابق بصلةٍ ولا قرابةٍ.

والذي يقتضيه التحقيق العلميُّ أنَّ آدم عليه السلام هو أبو البشر وأول النوع الإنسانيِّ على وجه الأرض، هذا ما يفيده القرآن والسُّنَّة الصحيحة بل المتواترة، فالقرآن ذكر غير مرةٍ أنَّ الله خَلَقَ آدمَ من طينٍ للدلالة على كمال قدرته، حيث خلق من طينٍ بشرًا سويًّا يسمع ويُبصر ويعقل، ولو كان هناك أوادم آخرون لكان ذكرهم أولى في إفادة هذا المعنى وأوكد.

وانظر إلى عيسى عليه السلام حيث وجد من غير أبٍ كيف شبَّهه الله بآدم فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فهذا صريحٌ في أنَّ آدم أول البشر على الإطلاق.

يُضاف إليه مثل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾[الأعراف: ٢٧].

وفي حديث الشفاعة المُخرَّج في "الصحيحين" وغيرهما عن أنسٍ، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أنَّ النَّاسَ يأتون آدمَ فيقولون: أنتَ أبو البشر خَلَقَكَ اللهُ بيَدِهِ...**» الحديث.

وفي "الصحيحين" أيضًا مِن طرقٍ تزيد علىٰ عشرةٍ، عن أبي هريرة وغيره، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في محاجَّة موسىٰ وآدم: «**أنَّ موسى عليه السلام قال لآدمَ: أنتَ أبونا خَيَّبتَنا وأَخْرَجْتَنا مِن الجنَّة...**».

وفي روايةٍ: «**أنتَ أبو البشر...**» الحديث، وسيأتي بتمامه إن شاء الله.

وفي "الصحيحين" أيضًا عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**أوَّل ما يُدْعَى يومَ القِيامَةِ آدمُ، فتراءَى ذُرِّيَّتُهُ، فيقال: هذا أبوكم فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيْكَ. فيقول: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ مِن ذُرِّيَّتِكَ، فيقول: يا ربِّ كم أُخْرِجُ؟ فيقول: أَخْرِجْ مِن كلِّ مائةٍ تسعةً وتسعين**».

فقالوا: يا رسول الله إذا أخذ منا من كلِّ مائةٍ تسعةً وتسعين فماذا يبقىٰ مِنَّا؟! قال: «**إنَّ أُمَّتي في الأُمَمِ كالشَّعْرَةِ البيضاء في الثورِ الأسودِ**».

وعند ابن أبي الدنيا: عن الحسن البصريِّ، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**يقول الله لآدمَ: يا آدمُ، أنتَ اليومَ عَدْلٌ بيني وبين ذُرِّيَّتكَ، قُمْ فانظر ما يُرفَعُ إليك مِن أعمالهم**».

وروىٰ الطبرانيُّ في "المعجم الصغير": عن الحسن البصريِّ قال: خطبنا أبو

هريرة على منبر رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فقال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: «لَيَعْتَذِرَنَّ الله تعالى يومَ القِيامَةِ إلى آدمَ ثلاثَ مَعَاذِيرَ يقول اللهُ تعالى: «يا آدمُ، لولا أنِّي لَعَنْتُ الكَذَّابينَ، وأَبْغَضْتُ الكَذِبَ والخُلْفَ، وأُعَذِّبُ عليه لرَحِمْتُ اليومَ ولَدَكَ أجمعين مِن شِدَّةِ ما أَعْدَدْتُ لهم مِن العذابِ، ولكن حَقَّ القولُ مِنِّي: لأنْ كُذِّبَتْ رُسُلِي وعُصِيَ أَمْرِي لأملأنَّ جهنَّمَ مِن الجنَّةِ والنَّاس أجمعين»، ويقول الله عزَّ وجلَّ: «يا آدمُ، اعْلَمْ أنِّي لا أُدْخِلُ مِن ذُرِّيَّتِكَ النَّارَ أحدًا، ولا أُعَذِّبُ بالنَّارِ إلَّا مَن قد عَلِمْتُ بعِلْمِي أنِّي لو رَدَدْتُهُ إلى الدُّنيا لعادَ إلى شَرِّ ما كان فيه، ولم يَرْجِعْ، ولم يَعْتَبْ»، ويقولُ اللهُ: «يا آدمُ، قد جَعَلْتُكَ حَكَمًا بيني وبين ذُرِّيَّتِكَ، قُمْ عند الميزانِ، فانظُرْ ما يُرْفَعُ إليك مِن أعمالهم، فمَنْ رَجَحَ منهم خَيْرُهُ على شَرِّهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فله الجنَّةُ حتَّى تَعْلَمَ أنِّي لا أُدخِلُ منهم النَّارَ إلَّا ظالِمًا».

فهذه النصوص صريحةٌ لا تحتمل التأويل، ومثلها نصوصٌ كثيرةٌ لا تكاد تنحصر، فدعوى وجود أوادم قبل آدم دعوى باطلةٌ، تخالف ما هو معلومٌ بالضرورة للمسلمين، بل للمِلِّيين قاطبةً.

وما استأنس به أولئك الزاعمون لا ينهض، أمَّا الحديث الذي أوردوه فهو باطلٌ موضوعٌ لا أصل له بجميع ألفاظه وأمَّا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فالمراد به خليفةٌ عن الله في إقامة الأحكام وتبليغ الشرائع، والقيام بحفظ مصالح الخَلْقِ بما يكفل ذلك الحفظ ويصونه، أو خليفة من الجنِّ الذين سكنوا الأرض قبل آدم عليه السلام.

وما بقايا العظام التي تكلَّم عنها الجيولوجيون أنها وجدت لجنسٍ يرجع تاريخه إلى مئات الألوف من السنين إلَّا عظام أولئك الجنِّ وبقاياهم، يؤيِّد هذا ويؤكِّده قولهم أيضًا: «إنَّ بقايا عظام ذلك الجنس لا تمت إلى الجنس الآدميِّ الموجود الآن بصلةٍ أو قرابةٍ»، وهذا صحيحٌ، لاختلاف عنصري الجنسين، فالجنُّ من عنصر النار والإنسان من عنصر التراب، فالجيولوجيون أخطأوا في تسمية ذلك الجنس بالآدميِّ، والصواب أنه الجنُّ كما بيَّنَّا، والله أعلم.

هل أصل الإنسان قرد ؟!!

ظهرت نظرية في البلاد الأوروبية تقول: إنَّ الإنسان أصله قردٌ، ثُمَّ ترقَّى بسبب عوامل مجهولةٍ حتى صار هذا الإنسان، وهي نظرية النشوء والارتقاء التي ابتدعها داروين، وتلقَّفها المفتونون بكلِّ جديدٍ ولو كان سخيفًا باطلًا، كهذه النظرية التي تردُّها دلائل النقل والعقل.

منها: أنَّ نصوص القرآن الكريم صريحةٌ في أنَّ آدم أبو البشر، وأنه مخلوقٌ من طينٍ.

ومنها: ما جاء في "الصحيحين" وغيرهما عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ على صُورَتِهِ، وطولُهُ ستون ذراعًا...**» الحديث. والضمير في صورته يعود على آدم.

وبعض الرواة فهم أنه يعود على الله فوهم، وزاد بعضهم في الوهم وروى الحديث بالمعنى فقال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ على صورة الرحمن**»، وهو وهمٌ مبنيٌّ على وهمٍ، والمقصود: أنَّ الحديث يُشير إلى أنَّ آدم خُلِقَ على صورته الأصلية، لم

يترقَّ مِن قردٍ إلى أن صار إنسانًا، كما لم يتدرَّج في أطوار الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة.

ومنها: أنَّ الله جعل عوالم المُكلَّفين ثلاثة: الملائكة والإنس والجن، فالملائكة مِن نورٍ، والجنُّ من نارٍ، والإنس من طينٍ، كما صحَّ في الحديث، بل صرَّح القرآن بذلك في الجنِّ والإنس، فحدَّد لكلِّ عالَمٍ عنصرًا خاصًّا به، منه تكوَّن حسبما اقتضته المشيئة الإلهية، ولو كان الإنسان ترقَّى من قردٍ أو غيره، لبيَّنه الله حينما عرض لبيان عنصري الثقلين، أو لبيَّنه الرسول المبلغ عنه حينما عرض لبيانهما مع بيان عنصر الملائكة، ولا يجوز السكوت عنه أبدًا بحال؛ لأنه إخبارٌ بخلاف الواقع، وإيقاع للناس في الغموض والإشكال، وذلك في حقِّ الله ورسوله محالٌ.

ومنها: أنه لا يجوز في قضايا العقول أن يتطوَّر حيوانٌ ما تطوُّرًا تلقائيًّا يخرج به عن حقيقته إلى حقيقةٍ أخرى تباينها تباينًا تامًّا في الذاتيات والعوارض، فالقرد قردٌ منذ أوجده الله في هذا العالم لم يتحوَّل إلى حيوانٍ آخر فيما مضى، ولن يتحوَّل إليه في المستقبل ولو مضى عليه ملايين السنين، والإنسان إنسانٌ كذلك، والفرس فرسٌ، وهكذا كلُّ ما في هذا العالم من أنواع الموجودات لا يمكن نوع منه أن ينقلب تلقائيًّا إلى نوعٍ آخر يُباينه، اللهمَّ إلَّا ما جاء في القرآن مِن مسخ بعض اليهود قردةً وخنازير، وهذه حالةٌ نادرةٌ جعلها الله عبرةً ونكالًا، كما قال الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦].

على أنَّ أولئك الممسوخين لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام ثمَّ ماتوا ولم يتركوا نسلًا مِن جنس ما مسخوا إليه، والعجيب أنَّ بعض المعاصرين وقف في كتابه "قصص الأنبياء" من هذه النظرية السخيفة موقف التردُّدِ والخَوَرِ، وأبدى استعداده لتأويل القرآن إذا ثبت بالأدلة القاطعة، بل فتح باب التأويل مقدمًا حيث صرَّح بأنَّ: «نصوص القرآن الظاهرة تدل على أنَّ أصل الإنسان آدم، ولم يكن قِردًا» إلخ.

فقوله: «الظاهرة» فتح لباب التأويل على مصراعيه، وهذا منه يدل على فقد إيمانه بعقله، وضعف ثقته بالقرآن، حيث توجَّس أن يأتي يوم تثبت فيه هذه النظرية وتصطدم بنصوصه.

ولكنا نؤمن جازمين أنه لن يأتي يومٌ يكون لها فيه نصيبٌ من الواقع، إلا إذا صار العلم جهلًا، والنور ظلامًا والنهار ليلًا.

أصل نظرية النشوء والارتقاء

قال العلامة ابن خلدون في مقدمة "تاريخه": «اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئةٍ من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمُسبِّبات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته، وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني، وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدًا من الأرض إلى الماء ثُمَّ إلى الهواء ثُمَّ إلى النار متصلًا بعضها ببعضٍ، وكلُّ واحدٍ منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدًا وهابطًا، ويستحيل

بعض الأوقات، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل».

إلى أن قال: «ثُمَّ انظر إلى عالم التكوين، كيف ابتدأ من المعادن ثُمَّ النبات ثُمَّ الحيوان، على هيئةٍ بديعةٍ من التدريج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ،ومعنى الاتصال في هذه المكونات أنَّ آخر أفق منها مستعدٌّ بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعدَّدت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر، والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحسُّ والإدراك، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا».اهـ

وراجعه في مبحث الكلام على حقيقة النبوة، وهو يقصد به إلى ترابط العالم وتناسقه في ترتيبٍ بديعٍ، واتصال عجيبٍ يدل على وحدته، وتماسك أجزائه، فأخذه داروين، ومسخه إلى ما ابتدعه، على أنَّ بعض العلماء الألمان ادَّعى أنَّ القرد إنسانٌ تقهقر، وليس الإنسان قردًا مترقيًّا، وجعل أدلة داروين أدلةً على صحَّة نظريته، وقد يكون هذا أقرب إلى الصواب، فإنَّ الله أخبر بأنه مسخ اليهود الذين اعتدوا في السبت قردة. وإن كنا لا نقر هذه النظرية ولا تلك.

مسائل منثورة

المسألة الأولى

تقدَّم في الحديث الذي رويناه عن "صحيح مسلم" أنَّ آدم خُلِقَ يوم الجمعة، ومعنى ذلك أنَّ الله تعالى بعد أن صوَّره من طينٍ وتركه حتى صار حمأً مسنونًا، نفخ فيه الروح يوم الجمعة.

وفيها أيضًا أُهبط من الجنة، قال ابن عبَّاسٍ: «ما سكن آدم الجنة إلَّا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس». صحَّحه الحاكم.

وقال موسى بن عقبة: «مكث آدم في الجنة ربع النهار، وذلك ساعتان ونصف، وذلك مائتا سنة وخمسون سنة، فبكى على الجنة مائة سنة». رواه عبدالله بن أحمد في زوائد "الزهد"[1].

المسألة الثانية

كان طول آدم ستين ذراعًا وعرضه سبعة أذرع، ثُمَّ لم يزل الخَلْقُ يتناقصُ شيئًا فشيئًا حتَّى وصل إلى الأحجام المُشاهدَة الآن.

ففي "الصحيحين" وغيرهما عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ على صُورَتِهِ، وطولُهُ ستون ذراعًا، فلمَّا خَلَقَهُ قال:**

---

(١) لكن قال ابن جريرٍ: «ومعلومٌ أنه خُلق في آخر ساعةٍ من يوم الجمعة –والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر– فمكث مصوَّرًا طينًا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثًا وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم».اهـ

اذهبْ فسَلِّم على أولئك مِن الملائكة، فاستمِع ما يُحيِّونك به فإنها تحيَّتُك وتحيَّة ذُرِّيَّتك فقال: السَّلام عليكم، فقالوا السَّلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكلُّ مَن يدخلُ الجنَّةَ على صورة آدمَ، فلم يزل الخَلْقُ ينقصُ حتَّى الآن».

وفي "مسند أحمد" بإسنادٍ حسنٍ عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «كان طول آدمَ ستين ذراعًا في سبعة أذرعٍ عَرْضًا».

وأمَّا ما جاء في بعض الآثار: أنَّ آدم لما أُهبط كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحَطَّهُ اللهُ إلى ستين ذراعًا فلا يعوَّل عليه؛ لمخالفته للحديث الصحيح.

المسألة الثالثة

تقدَّم في الحديث الذي رويناه عن "الصحيحين" أنَّ آدم عاش ألف سنةٍ، وأنه وَهَبَ من عمره أربعين سنةً لداود، فلما جاءه مَلَكُ الموتِ، قال له: بقي من عمري أربعون سنةً، ونسي هبته السابقة، فأكمل الله له الألف، وأبقى لداود المائة.

ولم يرد في عمر حوَّاء حديثٌ ولا أثرٌ، ويظهر أنها عاشت ألفًا أو ما يقرب منها، وعاشت بعد آدم مدةً لم يرد في تعينها شيءٌ يُعتمَد عليه، وفي "تاريخ ابن كثير" أنها ماتت بعده بسنةٍ واحدةٍ.

المسألة الرابعة

لم يتعرَّض القرآن ولا السُّنَّة الصحيحة لتعيين المكان الذي أهبط إليه آدم، وجاء في تعيينه أحاديث ضعيفةٌ، وآثارٌ عن بعض الصحابة والتابعين، لا بأس أن نشير إليها:

فروىٰ الطبرانيُّ، وأبو نعيمٍ في "الحلية" وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**نَزَلَ آدمُ عليه السلام بالهند فاسْتَوْحَشَ، فنَزَلَ جبريلُ عليه السَّلام فنادى بالآذان، الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله، مرَّتين. أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله مرَّتين. فقال: ومَن محمَّدٌ هذا؟ قال هذا آخر الأنبياء مِن ذُرِّيَّتك**». حديثٌ غريبٌ منكرٌ.

وصحَّ عن ابن عبَّاسٍ أنَّ أوَّل ما أهبط الله آدم إلىٰ أرض الهند.

وروىٰ ابن جريرٍ والبيهقيُّ في "البعث" عن ابن عبَّاسٍ قال: قال عليٌّ بن أبي طالبٍ عليه السلام: «أطيب ريح الأرض: الهند، أُهبط بها آدم فعلق ريحها من شجر الجنة». صحَّحه الحاكم.

وجاء عن ابن عبَّاسٍ أيضًا قال: «أُهبط آدم بالهند وحوَّاء بجدة، فجاء في طلبها حتىٰ أتىٰ جمعًا، فازدلفت إليه حواء فلذلك سُمِّيت المزدلفة، واجتمعا بجمع فلذلك سمِّيت جمعًا».

وممن قال «هبط بالهند»: جابر بن عبدالله، وابن عمر، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصريُّ، والسُّدِّيُّ.

وفي روايةٍ عن ابن عمر قال: «أهبط اللهُ آدمَ بالصفا وحوَّاء بالمروة». رواهما ابن أبي حاتمٍ.

وفي روايةٍ ثالثةٍ عن ابن عبَّاسٍ: «إنَّ آدم هبط بدُجناء أرض الهند». رواها ابن أبي حاتمٍ والحاكم.

و«دجناء»: بضم الدال وكسرها، يقال بالجيم والحاء، يمد ويقصر.

المسألة الخامسة

قال ابن إسحاق: «ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث، وعلَّمه ساعات الليل والنهار، وعلَّمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان، وكانت وفاته يوم الجمعة، وتولَّت الملائكة تجهيزه ودفنه».

روى عبدالله بن أحمد بإسنادٍ صحيحٍ عن أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني إنِّي أشتهي من ثمار الجنة، فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحَنُوطُهُ، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم يا بني آدم ما تريدون؟ قالوا أبونا مريضٌ واشتهي من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم، فجاءوا فلما رأتهم حوَّاء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال إليك عنِّي فإنِّي إنما أتيتُ مِن قِبلَكِ، فخَلِّي بيني وبين ملائكة ربِّي عزَّ وجلَّ، فقبضوه وغسَّلوه وكفَّنوه وحَنَّطوه وحفروا له ولحَّدوه وصلُّوا عليه، ثُمَّ أدخلوه قبره فوضعوه فيه ثُمَّ حَثَوا عليه، ثُمَّ قالوا: يا بني آدم هذه سنَّتكم».

واختُلف في موضع دفنه قال ابن كثيرٍ: «والمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط فيه في الهند، وقيل: بجبل أبي قبيس بمكة، وقيل إنَّ نوحًا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس، حكاه ابن جريرٍ. وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم، ورجلاه عند صخرة بيت المقدس.

وذكر أهل التاريخ أنَّ آدم لم يمت حتى رأى مِن ذريته -من أولاده وأولاد

أولاده- أربعمائة ألف نسمةٍ، وشيث ولد له بعد قتل هابيل، واسمه هبة الله وكان نبيًّا، فقد روىٰ أبو ذرٍّ عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه أنزل عليه خمسون صحيفةً. صحَّحه ابن حِبَّان.

المسألة السادسة

قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠] ليس المراد به آدم وحوَّاء، وإنما المراد به المشركون مِن ذريَّتهما، كما قال الحسن: «عني بها مِن ذرِّيَّة آدم ومَن أشرك منهم بعده، يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾».

قال أيضًا: «هم اليهود والنصارىٰ، رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا ونصَّروا».

ويؤيِّده قوله عليه الصلاة والسلام كما في "الصحيحين": «**كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ فأبَوَاهُ يُهوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ أو يُمَجِّسانِهِ، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاءَ، هل تُحِسُّون فيه مِن جَدْعَاءَ؟ حتَّى تكونوا أنتم تَجْدَعُونها**».

وإنما ذكر الله آدم وحوَّاء أولًا توطئةً وتمهيدًا لما بعدهما من الوالدين، فهو استطرادٌ من ذكر الشخص إلىٰ الجنس، وذلك مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

ومعلومٌ أنَّ المصابيح وهي النجوم التي زُيِّنت بها السماء ليست هي التي يرمىٰ بها، وإنما هذا استطرادٌ من شخص المصابيح إلىٰ جنسها، ولهذا نظائر في

القرآن؛ قاله ابن كثيرٍ.

أمَّا الحديث الذي رواه أحمد عن سمرة مرفوعًا: «**لَمَّا وَلَدَتْ حوَّاء طافَ بها إبليسُ، وكان لا يعيشُ لها وَلَدٌ، فقال لها: سَمِّيه عبدالحارث فإنه يعيش، فسَمَّته عبدالحارث فعاش، وكان ذلك مِن وحي الشيطان وأمره**».

فقد اعتمده كثيرٌ من المُفسِّرين، وحملوا الآية على آدم وحواء عليهما السلام، وأيَّدوه بما ورد في ذلك عن ابن عبَّاسٍ وأُبيٍّ، وتلك غفلةٌ منهم كبيرةٌ، فالحديث – وإن حسَّنه الترمذيُّ وصحَّحه الحاكم – مُنكَرٌ لا يصح لوجوهٍ:

أحدها: أنه روي من قول سمرة غير مرفوعٍ كما قال الترمذيُّ، رواه كذلك ابن جريرٍ وغيره.

ثانيها: كيف يقال كان لا يعيش لها ولد حتى سمَّته عبدالحارث، والله تعالى إنما أهبطهما إلى الأرض لتكون لهما الذرية والخلف؟!

ثالثها: تقدَّم في الحديث الصحيح من طرقٍ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فسَقَطَ مِن ظَهْرِهِ كلُّ نَسَمَةٍ هو خالِقُها مِن ذُرِّيَّته إلى يومِ القِيامَةِ؛ ثُمَّ عَرَضَهُمُ على آدمَ، فقال أي ربِّ مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيَّتُكَ...**» الحديث، وهذا العرض كان في الجنَّة، فكيف يتأتَّى بعد هذا أن يقبل آدم وحوَّاء قول الشيطان: لا يعيش لهما ولدٌ... إلخ؟! وهل هذا إلا تكذيب لخبر الله تعالى لا يليق صدوره من مطلق المؤمنين فضلًا عن أبوي البشر عليهما السلام.

رابعها: أنَّ الله تعالى قال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وقال: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] فسجَّل الله توبته

وهدايته، فكيف يقع في حبالة الشيطان بعد أن اجتباه الله وهداه؟!.

خامسها: أنه لو فرض حصول هذا منهما لأخبر بتوبتهما منه كما أخبر بتوبتهما من الأكل من الشجرة الذي حصل نسيانًا، لكنه لم يخبر بتوبتهما لا في القرآن ولا في السُّنَّة، فهل معنىٰ ذلك أنهما ماتا عاصيين، بل مشركين؟!! من اعتقد فيهما ذلك فليس بمسلمٍ.

سادسها: أنَّ إجماع المسلمين المستند إلىٰ الأدلة القطعية منعقدٌ علىٰ أنَّ الأنبياء معصومون من الشرك وما يؤول إليه، قبل النبوة وبعدها؛ لأنهم مفطورون علىٰ التوحيد، فكيف يقرُّ آدم علىٰ شركٍ يقع في بيته تحت سمعه وبصره؟!!.

سابعها: أنَّ قول الله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] دليل علىٰ أنَّ المراد ذريَّة آدم من المشركين واليهود والنصارىٰ.

والمقصود: أنَّ ذلك الحديث منكرٌ بجميع طرقه وألفاظه، لا يصح رفعه إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، بل هو مأخوذٌ من الإسرائيليات، حدَّث به عن مسلمة أهل الكتاب: سمرة وابن عبَّاسٍ وأُبيٌّ وغيرهم من التابعين.

المسألة السابعة

قيل إنَّ آدم عليه السلام أول من قال الشعر: وذلك حين قتل قابيل أخاه هابيل فبكىٰ وقال:

تَغَـيَّرتِ الـبِلادُ ومَـن عليهـا ... فوَجْـهُ الأرضِ مُغْـبَرٌّ قَبِـيحُ

تَغَـيَّرَ كُـلُّ ذي لَـوْنٍ وطَعْـمٍ ... وقَـلَّ بَشَاشَـةُ الوَجْـهِ المَلِيحِ[1]

---

(١) من الفوائد العَرُوضيَّة المتعلِّقة بهذه الأبيات ما ذكره ياقوت في "معجمه" حيث قال:

فأجابه إبليس لعنه الله:

تَـنَحَّ عـن الـبِلادِ وسَـاكِنيها فبي في الخُلْدِ ضَاقَ بِـكَ الفَسِيحُ
وكنـتَ بهـا وزَوْجُـكَ في رَخَـاءٍ وقَلْبُـكَ مِـن أذَىٰ الـدُّنيا مـريحُ
فـما انفكَّـتْ مُكايَـدَتي ومَكْـرِي إلىٰ أنْ فَاتَـكَ الـثَّمَنُ الـرَّبيحُ

رواه الخطيب وابن عساكر عن ابن عبَّاسٍ.

قال الحافظ ابن كثيرٍ: «وهذا الشعر فيه نظرٌ، وقد يكون آدم قال كلامًا يتحزَّن به بلغته، فألَّفه بعضهم إلىٰ هذا».اهـ.

المقصود: أنَّ نسبته إلىٰ آدم غير صحيحةٍ.

حدَّثني شيخنا الإمام علم الدين القاسم بن أحمد الأندلسيُّ قال: حدَّثني شيخنا تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكنديُّ قال: بلغني أنَّ أبا سعيد السيرافيَّ دخل علىٰ ابن دريد وهو يقول: أول من قال الشعر أبونا آدم عليه السلام في قوله:

تَغَـيَّرتِ الـبِلادُ ومَـن عليهـا فوَجْـهُ الأرضِ مُغْـبَرٌّ قَبِـيحُ
تَغَـيَّرَ كُـلُّ ذي لَـوْنٍ وطَعْـمٍ وقَـلَّ بَشَاشَـةُ الوَجْـهِ المَلِـيحِ

فقال أبو سعيد: يمكن إنشاده علىٰ وجه لا يكون فيه إقواء، فقال وكيف ذلك؟ فقال: بأن ينصب «بشاشة» علىٰ التمييز ويرفع «المليح» بـ«قَلَّ» ويكون قد حذف التنوين لالتقاء الساكنين كما حذف في قوله:

فألْفَيْـتُهُ غـير مُسْـتَعْتِبٍ ولا ذاكِـر اللهَ إلَّا قَلِـيلا

قال: فرفعني حتىٰ أقعدني بجانبه.

قلت: الإقواء اختلاف الروي باختلاف حركة الإعراب كما هنا. فلفظ قبيح مرفوع ولفظ «المليح» مجرورٌ، وهو من العيوب الشعرية كالإيطاء والتضمين.

المسألة الثامنة

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

هو كما قال الزمخشريُّ والبيضاويُّ وأبو حَيَّان من باب التمثيل، ومعنىٰ ذلك أنه تعالىٰ نصب لهم الأدلة علىٰ ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركَّبها فيهم وجعلها مميزةً بين الضلالة والهدىٰ، فكأنه سبحانه أشهدهم علىٰ أنفسهم وقرَّرهم وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وكأنهم قالوا: «بلىٰ أنت ربنا شهدنا علىٰ أنفسنا وأقررنا لوحدانيتك».

وباب التمثيل واسعٌ في كلام الله تعالىٰ ورسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وفي كلام العرب.

ونظيره قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

ومعلومٌ أنه لا قول ثَمَّ، وإنما هو تمثيلٌ وتصويرٌ للمعنىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾، أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة كراهة أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين لم نُنَبَّه عليه. أو كراهة أن تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم؛ فاقتدينا بهم.

لأن نصب الأدلة علىٰ التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في

الاقتداء بالآباء وتقليدهم، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم، واستعير كون أخذ الميثاق بالتوحيد من ظهور ذريات بني آدم، كأن الميثاق لصعوبته وللارتباط به والوقوف عنده شيءٌ ثقيلٌ يحمل على الظهور، وهذا من تمثيل المعنى.

أمَّا الحديث الذي في "الصحيحين" عن أنسٍ: أنَّ نبيَّ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يومَ القِيامَةِ: لو أنَّ لكَ ما في الأرضِ مِن شيءٍ أكنتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فيقولُ: نَعَمْ. فيقولُ: أردتُ مِنكَ أهونَ مِن هذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ؛ أن لا تُشْرِكَ بي شيئًا فأبيتَ إلَّا أن تُشْرِكَ بي**».

فقال عياض وغيره: « يُشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، فهذا الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم؛ فمن وفَّى به بعد وجوده في الدنيا فهو مؤمنٌ، ومن لم يوفِّ به فهو الكافر».اهـ

قلت: وهذا يفيد أنَّ الميثاق أخذ على ذريَّة آدم وهم في صلبه.

والذي دعا عياضًا وغيره إلى حمل الحديث والآية على هذا المعنى ما رواه أحمد والنَّسائيُّ عن ابن عبَّاسٍ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «**إنَّ اللهَ أَخَذَ المِيثاقَ مِن ظَهْرِ آدمَ عليه السلام بنَعْمانَ -يعني عَرَفَةَ- فأَخْرَجَ مِن صُلْبِهِ كلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَها فنَثَرَها بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبلًا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾**». صحَّحه الحاكم.

وما رواه ابن جريرٍ وغيره عن عبدالله بن عمرٍو قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: «أُخِذُوا مِن ظَهْرِهِ كما يُؤخَذُ بالمِشْطِ مِن الرَّأْسِ فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ قالتِ الملائكةُ: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

ولكن هذين الحديثين معلولان، فحديث ابن عبَّاسٍ اضطرب راويه كلثوم ابن جبر فرفعه مرةً، ووقفه أخرىٰ، والوقف أكثر وأثبت كما قال الحافظ ابن كثيرٍ؛ إذ رواه كذلك عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابتٍ وعليُّ بن بذيمة، عن سعيد بن جُبيرٍ، عن ابن عبَّاسٍ.

وكذلك رواه العوفيُّ وعلي ابن طلحة عن ابن عبَّاسٍ أيضًا، فهو من كلامه لا من كلام النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

وحديث عبدالله بن عمرٍو في سنده أبو محمد الجرجانيُّ -واسمه أحمد بن أبي طيبة- قاضي قومس، كان مع زهده يحدِّث بأحاديث كثيرة غرائب كما قال ابن عديٍّ، وقول أبي حاتمٍ: «يكتب حديثه»، لا يفيد اعتماده، إذ يقصد كتابة حديثه للاعتبار لا للاحتجاج.

ثُمَّ إنَّ هذا الحديث روي من طريقين ثابتين عن عبدالله بن عمرٍو موقوفًا عليه، أي من كلامه.

وعندي أنَّ حديث أنسٍ السابق يشير إلىٰ ما رواه مالكٌ، ومن طريقه أحمد وأبو داود والترمذيُّ والنَّسائيُّ وابن جريرٍ وابن أبي حاتمٍ وابن حِبَّان في

"صحيحه" عن عمر رضي الله عنه سُئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم- سُئل عنها فقال: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عليه السلام ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بيَمِينِهِ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ ذُرِّيَّةً قال: خَلَقْتُ هؤلاءِ للجَنَّةِ وبعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فاسْتَخْرَجَ مِنه ذُرِّيَّةً قال: خَلَقْتُ هؤلاءِ للنَّارِ وبعَمَلِ أهلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ». فقال رجلٌ: ففيمَ العَمَلُ يا رسول الله؟ قال: «إذا خَلَقَ اللهُ العَبْدَ للجَنَّةِ اسْتَعْمَلُهُ بأعمالِ أَهْلِ الجنَّةِ حتَّى يَمُوتَ على عَمَلٍ مِن أعمالِ أَهْلِ الجنَّةِ، فيُدْخِلَهُ بِهِ الجنَّةَ، وإذا خَلَقَ اللهُ العَبْدَ للنَّارِ اسْتَعْمَلُهُ بأعمالِ أهلِ النَّارِ حتَّى يموتَ على عملٍ مِن أعمالِ أهلِ النَّارِ فيُدْخِلَهُ به النَّارَ». حسَّنه الترمذيُّ، وللحديث طرقٌ وشواهد.

وهو يفيد أنَّ الله استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة والنار من غير أن يشهد عليهم، وهذا تخصيصٌ لعموم الآية؛ لأنها دالَّةٌ كما سبق على أنَّ الله نصب الأدلَّة على ربوبيَّته ووحدانيَّته، فبيَّن هذا الحديث أنَّ تلك الأدلة إنما ينتفع بها ويهتدي إليها من كان من أهل الجنة الذين ميَّزهم الله حين استخرجهم من صلب آدم، وقال: «خلقتُ هؤلاءِ للجنَّةِ»، أمَّا الطائفة الأخرى التي قال الله فيها: «خلقتُ هؤلاءِ للنَّارِ»، فلا ينتفعون بأدلة التوحيد، بل يصدُّون عنها ويأبون قبولها، وهم الذين يقول الله للواحد منهم يوم القيامة: «لو كان لك ما في الأرض أكنتَ تَفْتَدِي به؟»؛ فيقول: نَعَمْ، فيقول الله: «أردتُ منك أهونَ مِن هذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ أن لا تُشْرِكَ بي شيئًا، فأبيتَ إلَّا

أن تشركَ بي». جعل أهليته للنار واستعداده لها وهو في صلب آدم بمنزلة الإباء والامتناع، فكأنه سبحانه طلب منه التوحيد، وكأن الكافر أبىٰ إلَّا الشرك، فهو من باب تمثيل المعنىٰ وتصويره علىٰ وِزان ما سبق من الآية، وبهذا يزول الإشكال.

وقال الحافظ ابن كثيرٍ بعد أن أورد جملةً من الأحاديث في استخراج الذرية من صُلْبِ آدمَ ما نصُّه: «فهذه الأحاديث دالَّةٌ علىٰ أنَّ الله عزَّ وجلَّ استخرج ذريَّةَ آدمَ مِن صُلْبِهِ وميَّز بين أهل الجنة والنار، وأمَّا الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلَّا في حديث كلثوم بن جبرٍ، عن سعيد بن جُبيرٍ، عن ابن عبَّاسٍ، وفي حديث عبدالله بن عمرٍو، وقد بيَّنَّا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدَّم، ومِن ثَمَّ قال قائلون من السلف والخلف: أنَّ المراد بهذا الإشهاد -يعني في الآية- إنما هو فطرهم علىٰ التوحيد، وقد فسَّر الحسن الآية، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل من آدم، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي جعل نسلهم جيلًا بعد جيلٍ، وقرنًا بعد قرنٍ.

كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالًا، والشهادة تارةً تكون بالقول،

كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية.

وتارةً تكون حال كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي حالهم شاهدٌ عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧].

كما أنَّ السؤال يكون تارةً بالمقال، وتارةً يكون بالحال كقوله: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قالوا: هذا يدل على أنَّ المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حُجَّةً عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال مَن قال بأن الإشهاد حقيقي لكان كل أحد يذكره ليكون حُجَّةً عليه». اهـ

المسألة التاسعة

في "الصحيحين" وغيرهما: عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**احْتَجَّ آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونا خيَّبْتَنا وأَخْرَجْتَنا مِن الجنَّةِ، قال له آدمُ: يا موسى، اصْطَفاكَ اللهُ بكِلامِهِ وخَطَّ لك بيَدِهِ أَتَلُومُني على أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عليَّ قَبْلَ أن يَخْلُقَنِي بأربعين سنةً، فحَجَّ آدمُ موسى، فحَجَّ آدمُ موسى**» ثلاثًا.

ولهذا الحديث عشرة طرقٍ عن أبي هريرة، ورواه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم غير أبي هريرة: عمر، وجندب بن عبدالله، وأبو سعيدٍ الخدريُّ.

قال الحافظ ابن عبدالبر: «هذا الحديث ثابتٌ بالاتفاق، رواه عن أبي هريرة جماعةٌ من التابعين، ورُوِيَ عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مِن وجوهٍ أخرىٰ مِن رواية الأئمَّة الثِّقات الأثبات». اهـ

وله ألفاظٌ كثيرةٌ في الكتب الستة و"مسند أحمد" وغيرها.

وفيه إشكالٌ، وحاصله أن يقال: كيف حكم النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لآدم بالحُجَّة مع أنه احتجَّ بالقَدَر، والاحتجاج بالقَدَر لا يفيد حسبما دلَّ عليه القرآن والسُّنَّة المتواترة؟ وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبةٍ:

منها: قال القرطبيُّ: «إنما غلبه بالحُجَّة؛ لأنه علم من التوراة أنَّ الله تاب عليه، فكان لومه علىٰ ذلك نوع جفاءٍ، كما يقال: ذِكْرُ الجفاءِ بعد حصول الصَّفاءِ جفاءٌ، ولأن أثر المخالفة بعد الصفح ينمحي حتَّىٰ كأنه لم يكن، فلا يصادف اللوم من اللائم حينئذٍ محلًّا». اهـ

قال الحافظ ابن حجرٍ: «وهو محصل ما أجاب به المازريُّ وغيره من المحقِّقين، وهو المعتمَد». اهـ

ومنها: قال الداوديُّ في "شرح البخاري": «إنما قامت حُجَّة آدم؛ لأنَّ الله خلقه ليجعله في الأرض خليفةً، فلم يحتج آدم في أكله من الشجرة بسابق العلم؛ لأنه كان علىٰ اختيارٍ منه، وإنما احتجَّ بالقَدَر لخروجه، لأنه لم يكن بد من ذلك». اهـ

ويؤيِّد هذا ما رواه عبدالرزَّاق وعبد بن حُميد وغيرهما عن ابن عبَّاسٍ قال: إنَّ الله أخرج آدمَ من الجنة قبل أن يخلقه ثُمَّ قرأ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

المسألة العاشرة

يؤخذ من قصة آدم عليه السلام أمور:

الأول: إنَّ حِكْمَة الله تخفىٰ علىٰ أقرب الخَلْقِ إليه، كما خفيت حِكْمَة استخلاف آدم في الأرض علىٰ الملائكة؛ حتىٰ اشتاقوا إلىٰ معرفة الحِكمة في هذا الاختيار.

الثاني: إنَّ عناية الله إذا توجَّهت إلىٰ الشيء الحقير المهين خلعت عليه حُلل البهاء وأهَّلته لرتبة الاجتباء، ألا ترىٰ كيف توجَّهت عنايته إلىٰ التراب الذي خُلق منه آدم فصيرته بشرًا سويًّا، وجعلته مظهرًا لأسرار قدرته، وعلمه الواسع، بحيث اعترفت الملائكة بالقصور عن إدراك مداه.

الثالث: إنَّ طاعة المرأة تُعقِب الندم، ألا ترىٰ إلىٰ آدم عليه السلام حين وافق حوَّاء علىٰ الأكل من الشجرة، وقع فيما وقع.

وقد ورد حديثٌ ضعيفٌ عن أنسٍ مرفوعًا: «**لا يفعلنَّ أحدُكم أمرًا حتَّى يَسْتَشِيرَ، فإن لم يَجِدْ مَن يَسْتَشِيرُه فليَسْتَشِرْ امْرأةً ثُمَّ ليُخالفها؛ فإنَّ في خِلافها البركةَ**». رواه ابن لال والديلميُّ.

وروىٰ العسكريُّ عن عمر رضي الله عنه قال: خالفوا النِّساء فإنَّ في خلافهنَّ البركة.

وروي أيضًا عن معاوية قال: عوِّدوا النِّساء: «لا»، فإنها ضعيفةٌ؛ إن أطعتها أهلكتك.

الرابع: أنَّ الإنسان -وإن سَمَتْ منزلته وعَظُمَتْ رتبته- لا يخلو من هفوةٍ تقع منه، لنسيانٍ يعرض له، أو تأويلٍ يراه كما وقع لآدم عليه السلام، حيث

أكل من الشجرة ناسيًا كما سجله القرآن الكريم، أو متأوِّلًا كما قال كثيرٌ من العلماء.

الخامس: أنَّ وقوع المخالفة من العبد تُجبَر بالتوبة والإنابة إلى الله كما وقع من آدم، فإنه حين اعترف وتاب تاب الله عليه واجتباه وهداه، وهذه سُنَّة الله مع العُصاة مِن عباده؛ يقبلهم إذا تابوا ويفتح لهم باب رحمته: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

السادس: أنَّ أصول الخطايا ثلاثة: الكِبْرُ، والحِرْصُ، والحَسَدُ.

فالكِبر: هو الذي صيَّر إبليس إلى معارضة الأمر بالسجود.

والحِرْص: هو الذي سبَّب خروج آدم من الجنَّة.

والحَسَد: هو الذي جرَّأ أحد ابني آدم على قتل أخيه.

فمن وُقي شرَّ هذه الثلاثة فقد وُقي الشرَّ؛ فالكفر من الكِبر، والمعاصي من الحِرص، والبَغْيُ والظُّلْم مِن الحَسَد.

السابع: أنَّ ترك الأمر أعظم عند الله من ارتكاب النهي؛ لأن آدم نُهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أمر بالسجود لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه. قاله سهل بن عبدالله.

قال ابن القيِّم: «هذه مسألةٌ عظيمةٌ لها شأنٌ، وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي، وذلك من وجوهٍ عديدةٍ، وذكرها فأوصلها إلى ثلاثة وعشرين وجهًا:

منها: أنَّ ارتكاب ذنب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة، وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكِبر والعِزَّة، ولا يدخل الجنة مَن في قلبه مِثقال ذرَّةٍ من كِبْرٍ، ويدخلها من مات على التوحيد وإن زَنَى وسَرَقَ.

ومنها: أنَّ الله سبحانه جعل جزاء المأمورات عشرة أمثال فعلها، وجزاء المنهيات مثل واحد، وهذا يدل على أنَّ فعل ما أمر به أحب إليه من ترك ما نهى عنه، ولو كان الأمر بالعكس لكانت السيئة بعشرة والحسنة بواحدةٍ، أو تساويا».

الثامن: قال القشيريُّ: «كل ما مُنع منه، توفَّرت دواعي ابن آدم للاقتراب منه، هذا آدم عليه السلام أُبيحت له الجنة بجملتها، ونهي عن شجرةٍ واحدةٍ، فليس في المنقول أنه مَدَّ يده إلى شيءٍ من جملة ما أُبيح له، وكأنه عيل صبره حتى ذاق ما نهي عنه، هكذا صفة الخلق».اهـ

التاسع: قال بعض أهل الإشارات: «الذي يليق بالخلق عدم السكون إلى الخلق، وما زال آدم وحده بكلِّ خيرٍ وبكلِّ عافيةٍ؛ فلمَّا جاءه الشكل والزوج، ظهر إتيان الفتنة، وافتتاح باب المِحنة، وحين ساكَن حوَّاء أطاعها فيما أشارت عليه من الأكل فوقع فيما وقع».اهـ

العاشر: قال بعض العلماء: «لما سلم لآدم أصل العبودية، لم يقدح فيه الذنب: «**ابن آدم، لو لَقِيتَني بقُرابِ الأرضِ خَطَايا ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئًا لأَتَيْتُكَ بقُرابِها مَغْفِرَةً**».

ولما علم السيِّد أن ذنب عبده لم يكن قصدًا لمخالفته، ولا قدحًا في حِكْمته، علَّمه كيف يعتذر إليه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]».اهـ

خاتمة

ونختم هذه القصة بكلمةٍ لابن القيِّم الحافظ؛ تشتمل على إشاراتٍ لطيفةٍ، وحِكَمٍ صوفيَّةٍ شريفةٍ.

قال في كتاب "الفوائد": «تأمَّل كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض، ونبَّه الملائكة على فضله وشرفه، ونوَّه باسمه قبل إيجاده بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وتأمَّل كيف وسمه بالخلافة؛ وتلك ولايةٌ له قبل وجوده، وأقام عذره قبل الهبوط بقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والمحب يُقيم عذر المحبوب قبل جنايته، فلما صوَّره ألقاه على باب الجنة أربعين سنة؛ لأن دأب المحبِّ الوقوف على باب الحبيب، ورمى به في طريق ذل ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا﴾ [الإنسان: ١] لئلا يعجب يوم ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ [البقرة: ٣٤].

كان إبليس يمرُّ على جسده فيعجب منه، ويقول: «لأمرٍ قد خُلقت»، ثُمَّ يدخل من فيه ويخرج من دبره، ويقول: «لئن سُلِّطتُ عليك لأُهلِكنَّك، ولئن سُلِّطتَ عليَّ لأعْصِينَّك».

ولم يعلم أنَّ هلاكه على يده، رأى طينًا مجموعًا فاحتقره، فلما صُوِّر الطين صورةً دَبَّ فيه داء الحسد، فلما نفخ فيه الروح مات الحاسد.

فلما بسط له بساط العِزِّ، عرضت عليه المخلوقات، فاستحضر مُدَّعي ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: ٣٠] إلى حاكم ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ [البقرة: ٣١] وقد أخفى الوكيل عنه بينة ﴿وَعَلَّمَ﴾ [البقرة: ٣١] فنكسوا رؤوس الدعاوي على صدور

الإقرار، فقام منادي التفضيل في أندية الملائكة ينادي ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ [البقرة: ٣٤] فتطهروا من حدث دعوىٰ ﴿وَنَحْنُ﴾ [البقرة: ٣٠] بماء العذر في آنية ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] فسجدوا علىٰ طهارة التسليم، وقام إبليس ناحية لم يسجد، لأنه خبث، وقد تلوث بنجاسة الاعتراض، وما كانت نجاسته تتلافىٰ بالتطهير لأنها عينيَّة، فلما تمَّ كمال آدم قيل: لابد من خال جمال علىٰ وجه ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ فجرىٰ القَدَر بالذنب ليتبيَّن أثر العبودية في الذلِّ.

يا آدم، لو عفي لك عن تلك اللقمة لقال الحاسدون: كيف فضل ذو شَرَهٍ لم يصبر علىٰ شجرة ؟!! لولا نزولك ما تصاعدت صعداء الأنفاس، ولا نزلت رسائل «**هل مِن سائلٍ؟**» ولا فاحت روائح «**ولخلُوفُ فُمِ الصَّائمِ**» فتبيَّن حينئذٍ أن ذلك التناول لم يكن عن شَرَهٍ.

يا آدم، ضحكك في الجنة لك، وبكاؤك في دار التكليف لنا، ما ضر من كسره عِزِّي، إذا جبره فضلي، إنما تليق خلعة العزِّ ببدن الانكسار «**أنا عند المُنكَسِرةِ قلوبُهم مِن أجلي**» ما زالت تلك الأُكلة تُعادُّه حتىٰ استولىٰ داؤه علىٰ أولاده، فأرسل إليهم اللطيف الخبير الدواء علىٰ أيدي أطباء الوجود ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]

فحماهم الطبيب بالمناهي، وحفظ القوة بالأوامر، واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة، فجاءت العافية من كلِّ ناحيةٍ».اهـ وهي كلمةٌ في غاية الحسن.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلاته وسلامه علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه وسلم والتابعين.

(تنبيه): حينما عرضنا لقصة هابيل وقابيل فاتنا أن ننبِّه على مسألةٍ تتعلَّق بها، وهي ما رواه الثعلبيُّ في "تفسيره" عن معاوية بن عمران قال: سألت جعفر الصادق عليه السلام: أكان آدم يُزوِّج ابنته من ابنه؟ فقال: معاذ الله، وإنما زوَّج قابيل جنيَّةً وزوَّج هابيل حوريَّةً فغضب قابيل، فقال آدم: يا بني ما فعلته إلَّا بأمر الله، فكان من خبرهما ما قَصَّهُ الله في القرآن.

قال الحافظ ابن حجرٍ: «إسناده واهٍ ولا يثبت هذا عن جعفرٍ ولا عن غيره، ويلزم منه أنَّ بني آدم من ذرية إبليس؛ لأنه أبو الجنِّ كلهم، أو مِن ذريَّة حور العين، وليس لذلك أصلٌ ولا شاهدٌ».اهـ وهو واضحٌ والله أعلم.

المحتويات

المقدمة ٥
قبل خلق العالم ١١
أول المخلوقات..... ١١
عناصر خلق المخلوقات..... ١٤
الملائكة..... ١٥
الجن..... ١٧
خلق السموات والأرض..... ١٩
خلق آدم عليه السلام..... ١٩
سجود الملائكة لآدم عليهم السلام..... ٢٠
نكتة علمية في سجود آدم..... ٢١
خلافة آدم في الأرض..... ٢٢
كيف عرف الملائكة أن بنى آدم مفسدون..... ٢٢
كيف ساغ للملائكة أن يراجعوا وهم معصمون؟..... ٢٤
تعليم آدم الأسماء كلها..... ٢٥
امتناع الشيطان من السجود وطرده من الجنة..... ٢٨
استشكال في سجود الشيطان والجواب عنه..... ٢٩
خلق حواء..... ٣٠
سكنى آدم وزوجته الجنة..... ٣١
الجنة التي سكنها آدم عليه السلام..... ٣٢
وسوسة الشيطان لآدم وحواء..... ٣٤
كيف توصل الشيطان إلى الوسوسة..... ٣٧
كيف وقعت المخالفة من آدم عليه السلام..... ٣٩
توبة آدم عليه السلام..... ٤٦
نبوة آدم عليه السلام..... ٥٠
دلالة القرآن على نبوته..... ٥١
قصة قابيل وهابيل..... ٥٢
دلالتان من القرآن أيضًا..... ٥٤
دلالة أخرى من القرآن..... ٥٥
دلالة السنة النبوية..... ٥٧
الإجماع..... ٥٩
استشكال حول رسالة آدم عليه السلام والجواب عنه..... ٦٠
آدم هو أبو البشر..... ٦٠
هل أصل الإنسان قرد؟..... ٦٤
أصل نظرية النشوء والارتقاء..... ٦٦

مسائل منثورة: المسألة الأولى: مكوث آدم في الجنة.....٦٨
المسألة الثانية: طول آدم عليه السلام.....٦٨
المسألة الثالثة: عمر آدم عليه السلام.....٦٩
المسألة الرابعة: لم يتعرض القرآن ولا السنة الصحيحة لتعيين المكان الذى أهبط فيه آدم.....٦٩
المسألة الخامسة: في وفاة آدم.....٧١
المسألة السادسة: فى قوله تعالى: ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها لتسكن﴾.....٧٢
المسالة السابعة: قيل أن آدم عليه السلام هو أول من قال الشعر.....٧٤
المسألة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿وإذا أخذ ربك من بنى آدم﴾.....٧٦
المسألة التاسعة: حديثك ((أحتج آدم وموسى)) ٨١
المسألة العاشرة: ما يؤخذ من قصة آدم.....٨٣
خاتمة الكتاب.....٨٦
فهرس المحتويات.....٨٩